سوسنة بين الثلوج

سوسنــة بين الثلــوج

روايـــــة

زهـــــراء طالــــب

سوسنة بين الثلوج

روايـــــة

اسم الكاتبة: زهراء طالب
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٥٧٤ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

لقـــاء

عندما بدأت أولى قطرات المطر، تتساقطُ على شوارع المدينةِ التي زينها أصحابها مبتهجين بحلول العيد، كانت القطرات تتسابق فيما بينها للوصول إلى خطِّ النهاية لتستقر تحت أرجل المارة الذين أخذت ضحكاتهم تملأ أجواء المدينة إلا هي، فبيديها النّحيلتين وشفتيها المتجمدتين وعينيها الخافتتين راحت تركض هربًا تريد ما تحمي به جسدها التعب فلا تجد إلا خرقةَ ثيابها التي أرهقها الزمن، كان وجهها تعبًا لكنه لا يزال جميلًا يحكي قصة شقاء مريرة تعير الإنسان بما وصل إليه أخوه الإنسان. هكذا كانت (هيلين)، فتاة معدمة لا تملك سوى أنفاسها المتقطعة، لا يوجد معها ما تشتري به كسرةَ خبز يابسة.

كانت الليلة ليلة عيدٍ والناس في سرور وحبور، هذا يشتري الهدايا، وذاك يأكل وآخر ينعم في بيت دافئ سعيدٍ أما هي فضائعةٌ مشردة، لم تعرف من هذه الحياة غير امرأة عجوز وجدتها ملقاة عند عتبة بابها، لما بلغت (هيلين) الخامسة كانت المسؤولةَ عن شؤون البيت برُمَّته من تنظيف وطبخ غير أن هذا لم يكن ليرضي تلك العجوز الناقمة التي لطالما ألقتْ سهامها اللاذعة لتصيب الفتاة المسكينة بجروح صعبة الاندمال، عندما كانت تردّد على مسامعها كيف أنها وجدتها مرميّة في ليلة ظلماء، كانت ملقاة عند بابها لا تملك سوى ثوبها وخاتم ذهبي جميل، ظنته العجوز مسروقا. ماتت العجوز

لتبقى (هيلين) في عالم لا يرحم، كان عالمًا كبيرًا لم تعرف له نهاية وهي التي لم تجد البداية التي ابتدأت حياتها بها.

مشتْ في طريقها المجهول، شل البرد الشديد تفكيرها، لم تستطع نسيانَ أنين معدتها الخاوية الذي راح يلحُّ عليها وهي لا تجد ما تطفئ به ذلك الأنين الذي كاد يكون رفيقًا لها طيلة حياتها. كانت تسير بخطوات حَذِرةٍ خائفة، كانت تشعر أن الناس ير اقبونها وأعينهم التي لا ترحم كأسهم تصل إليها لتخترق صدرها، لطالما سألتهم الإحسانَ فأداروا وجوههم وتجاهلوا نداءها. حاولت جاهدة الحصول على عمل شريف، لم تكن تملكُ حرفةً أو مهنة تتكئ عليها، طرقت أبواب البيوت لكنها صدت جميعا دونها، فطلبت الإحسان، طلبتْه بصوت واهنٍ قد اختلط بصرصرة الرياح الباردة، تطلب فيه المساعدة في ليلة عيد مباركة، لم يجد صوتها المتقطع غير الصدى دربًا يتردد فيه، وقفت متسمرة أمام محلٍّ لبيع الحلوى، حاولتْ أن تتذكر آخر مرة تناولت فيها بقايا حلوى فلم تستطع، كم تمنتْ لو تنال واحدة، لمَحها صاحب المخبز على حالها بثوبها الممزّق فأدرك سريعًا أنها لا تملك شيئا غير البؤس والشقاء وذلك الوجه الجميل، حاول المساومة؛ حلوى مقابل بعض الخلوة في الغرفة الخلفية، استنكرتْ واستقبحتْ كلامه، طردها شر طرد. ابتعدت والدموع تتساقط تباعا، كانت عبرات مظلوم في هذا العالم الظالم، أخذت زفراتها تنساب على وجنتيها لتتجمد عليهما قبل أن تجف، راحت تردد: ربي، رفقًا بعبدك الضعيف الذي لا يجد ما يحتمي به سوى أرضك الواسعة.

رفقًا بالعصافير التي تخلفت عن سربها فصارت ضائعة في هذه السماء الممتدة. ربي رفقًا بأطفال حرموا معنى الاستقرار والحنان.

لمحت من بعيد نهاية الشارع الطويل ورأت شارعًا آخر بدا أكثر إضاءة من هذا الذي تسير فيه، تخيلت أن في ذلك الطريق خلاصًا لها من دنياها، ركضت بكل ما تبقى من روحها العذراء، حتى بدت الدنيا تتراقص حولها فوقعت مغشيا عليها وسط المارة الذين أحاطوا بها وعلامات الدهشة ترتسم على وجوههم القذرة، أخذت عبارات الشفقة والتأنيب تنهالُ في آن واحد، فمنهم من قال: يا لهذه الفتاة المسكينة، انظروا لحالها التعسة! وقال آخر: أين أهلها؟ لا بد أنهم يبحثون عنها الآن! وأثناء ذلك اعترض المارة صوت جهوري حازم، التفت الجمع وهم يفسحون المجال أمام رجل مفتول الساعدين صارمِ النظرات، ازدحمت الهمسات بين الناس: السيد مارك! أجل إنه السيد مارك بعينه! فقال الرجل بعد أن صفق بكلتا يديه: لم التجمع هنا؟ فليتفرق الجمع حالا. ثم أشار إلى خادمه أن يرفع الفتاة الملقاة على الثلوج، بدت جثة هامدة ودعت الحياة وما فيها.

صعد مارك عربته وأشار إلى السائق بالانطلاق، تحركت العربة مسرعة وخطوات الحصان تحدث حركة مستمرة فيها، نظر إلى وجهها تحت ضوء البدر فرأى فتاةً بريئةً كمرآة صافية لطّخها الفقر وعلى الرغم من ذلك لا زالت ملامحها فائقة الجمال! أدار وجهه عنها وقد داخلته الشكوك في أمرها، ساوره التردد لحظات قليلة، فكر بصحة الخطوة التي أقبل عليها، ألقى نظرة ثانية نحو ذلك الوجه الملائكي، تبدد ذلك التردّد سريعا، توجه بناظره إلى

حافة الطريق الذي خرج عن حدود المدينة وقد دخلت العربة في أحضان طريق آخر أحاطتْ الأشجار جانبيه لتحتضن السائر فيه ولتقلل من برد الشتاء القارص. توقفت العربة بعدما وصلوا، كان قصرًا جميلًا شامخًا وسط تلك الأشجار التي طوقته وكأنها حراس قصر ملكي.

نزل مارك من العربة وقد أمر بإنزال الفتاة وحملها إلى الداخل، دخل القصر وقد استقبلته كاثرين؛ مديرة المنزل مرحبة: أهلا بك يا سيدي. نظرت بعينين مندهشتين إلى الفتاة التي كان الخادم يحملها وأرادت أن تنطق ببضع كلمات إلا أن مارك قاطعها قائلا: فتاة مسكينة وجدتها مغشيًا عليها في إحدى شوارع المدينة فحاولت المساعدة. ثم تابع وقد اتجه إلى غرفة من غرف القصر قائلا: اعتني بها وقدمي لها الرعاية حتى تشفى. فاتسعت علامات الدهشة على وجهها وهي تقول: حاضر يا سيدي!

دخلت (هيلين) إلى عالم جديد لم تعهده سابقا، كان عالمًا مختلفًا عن عالمها الذي عاشته واعتادت عليه، كان أشبه بلُغز غريب صعب وكانت الأيام خير مفتاح لحل هذا اللغز، بدت الشمس وكأنها أشرقت على (هيلين) بعد أن طال غيابها لتعلن عن ربيع جديد بعدما كان من شتاء طويل!

نامت (هيلين) ليلتها تلك في ذلك القصر الكبير على فراش حريري لم تكن تحلم برؤيته، نامت وثيابها جديدة وغرفتها نظيفة لا تتراكض فيها الفئران ولا تعزف فيها الصراصير ألحانا! نامت نومًا عميقًا كطفل رضيع وجد أمه بعد طول غياب لينام في أحضانها لا يريد النهوض خوفا من أن ينتهي حلمه الجميل، كانت تحلم و ابتسامتها الخجلى مرسومة على وجهها الدائري.

في الصباح، أشرقت الشمس من بين التلال وقد تناست أنها في شهر كانون الأول، أرسلت أشعّتها الذهبية على السفوح لتتلألأ الثلوج المنتشرة التي ألبست الأرض ثوبًا أبيضَ يشبه ثوب العروس في ليلة زفافها. تسللت بعض تلك الأشعة عبر نافذة غرفة (هيلين) لتطرق باب عينيها النائمتين وتقبلهما قبلة يوم دافئ بعد عناء وبرد طويلين، فتحت مقلتيها لترى عالمًا غريبًا لم تعهده، قفزت من سريرها خائفة فوقع بصرها على المرآة، اتسعت عيناها عجبا، شكت أن تكون الصورة المعكوسة أمامها صورتها، راحت تتفحص ثيابها البيضاء الجميلة والغرفة الناعمة، بدا كل شيء غريبا، وبينما هي خائفةٌ حائرةٌ، طرق الباب طرقا خفيفا لتدخل امرأة شابة والابتسامة المرحة تعلو وجهها لتحيي (هيلين) بقولها: صباح الخير يا سيدتي.

جفلت (هيلين)، كانت المرة الأولى التي تنادى فيها بـ"سيدتي" فازدادت خوفا وأخذت تتراجع بخطاها إلى الخلف قائلة: من أنت؟ أين أنا؟

- لا تخافي يا سيدتي، أنت الآن بأمان.
- من أنت، أخبريني؟
- خادمتك ساندي يا سيدتي.
- ارتسمت الدهشة على وجهها وقالت: ماذا؟ أين أنا الآن؟
- أنت الآن في منزل السيد مارك.
- ومن هو السيد مارك؟

- ألا تعرفينه؟ إنه أشهر وأهم رجل في البلاد، لقد عاد الليلة الماضية إلى القصر، كانت ليلة شديدة البرودة وقد... ثم أخذت الخادمة تسرد لها الأحداث التي كانت البارحة عندما كانت (هيلين) مغشيا عليها.

وبعد أن أكملت ساندي حديثها قالت: هذا ما أخبرني به بيتر؛ الخادم الذي حملك يا سيدتي.

- يا إلهي... كل ذلك جرى لي البارحة! لكني لا أذكر شيئا قط! فقط أذكر أني كنت أشعر بالبرد والجوع الشديدين.

تذكرت الطعام، كانت معدتها لا تزال خاوية فهي لم تأكل منذ يومين! وأثناء ذلك قرع الباب مما أعاد الخوف إلى قلبها وقد خطف لونها وقالت لساندي: من هذا يا ساندي؟

- لا تخافي يا سيدتي، سأفتح الباب فورا.

نظرت (هيلين) إلى عتبة الباب لترى أمامها امرأة طويلة رشيقة ترتدي ثوبا أزرق شديد الزرقة تعلوه ياقة بيضاء، كانت ملامحها باردة، بدت في الثامنة أو التاسعة والثلاثين من عمرها، تبدو القوة والإرادة والتصميم في عينيها الكبيرتين.

ساندي: سيدتي، هذه هي السيدة كاثرين، إنها مديرة ومدبرة هذا المنزل.

حاولت (هيلين) أن تستجمع صوتها الذي تفرق خوفا وقالت: أهلا بك سيدتي.

ابتسمت كاثرين ابتسامة باردة وقالت: كيف حالك اليوم يا صغيرتي؟

انزعجت (هيلين) عندما نعتت بالصغيرة، فهي الآن في الثامنة عشرة من عمرها، لكنها حاولت إخفاء ما بداخلها من انزعاج وقالت: الحمد لله يا سيدتي.

أخذت كاثرين تتفحص (هيلين) بعينيها الثاقبتين وكأنها تقرأ كتابًا مفتوحًا لتحل ألغاز مسألة مبهمة، ثم صفقت بيديها صفقة أرعبت الفتاة، فدخل خادم داكن البشرة يحمل في يديه صينية مغطاة بقماشٍ شفّافٍ وضعها على الطاولة ثم انصرف، فقالت كاثرين: اجلسي يا... ما اسمك؟

- اسمي (هيلين).... (هيلين) يا سيدتي.
- حسنا، اجلسي يا (هيلين) وتناولي فطورك الآن.

غادرت كاثرين وساندي وتركتا (هيلين) وحدها في غرفتها، قفزت إلى الطاولة فرحًا وأزالت الغطاء عن الفطور فاتسعت عيناها عجبًا لما رأته من طعام، لم تتعرف منه سوى الخبزوالبيض، أما الباقي فأكلته دون أن تعرف ما هو! أكلته بشراهة واضحة وكأنها كانت تخاف أن يرجعوا ويأخذوا الطعام منها، فأكلت حتى امتلأت وهي تقول في سرها: هذا الطعام يغنيني عن ضرورة الغداء والعشاء اللذين قد لا أجد لهما سبيلا.

أخطأت يا سيدي!

توجهت مديرة المنزل كاثرين إلى مكتبة القصر حيث السيد مارك، وهي تشد خطاها مسرعة وكأن وراءها من يلاحقها بعدما ارتفع الدم إلى وجنتيها النحيلتين؛ فباتتا زهريتين مما زادهما إصرارا وجلدا. توقفت أمام باب المكتبة وقد أرخت ساعديها وزفرت زفرة عميقة، عاد معها لون وجهها إلى طبيعته ثم استرجعت ابتسامتها الباردة، وقد طرقت الباب فرد صوتٌ واضحٌ دلّ على وقار صاحبه مؤذنا بالدخول، فتحت الباب فرأت السيد مارك، كان واقفاً أمام النافذة الكبيرة وقد أطلت الغرفة على حديقة القصر، وكأنها تتحدث إليها بعد أن عاشت ساعات الليلة الباردة وحيدة. قطعت حبل الصمت قائلة: ألا أجد توضيحًا لما يحدث؟

رد مارك بصوته الهادئ: انظري إلى ذلك العصفور الذي حط على شجرة التوت العارية وكأنه يندُب سقوط أور اقها.

أظهر تجاهلًا تجاه حيرتها، كاد ذلك يجعل وجهها يتلون بلون الدم لولا أنها تمالكت نفسها وقالت: سيدي، طلبت توضيحًا وأُصر عليه. التفت مارك إليها وقد رأى الإصرار يشع من عينيها، كما تشع النجمة في كبد الليل فأدرك أنه لا محالة من الكلام وخصوصا أنه أمام كاثرين "المرأة السر الغريبة"، دار حولها ببطء وعيناها قد صوبتا نحو الأفق لم تتحركا، ثم توقف وقال: رأيت الفتاة ممدّدةً على الثلج وأنفاسها متسارعة ولا يوجد من يرحمها، فتحركت ورفعتها مما هي فيه، أفلا يكفيك هذا؟

قهقهتْ كاثرين بصوت دل على استهزاء ممزوج بالغضب: يا سيدي يا صاحب القلب الحنون، ولماذا لم تحضر معها جميع الكلاب المتشردة، فالقصر كبير وقلبك الرقيق أكبر.

قاطعها مارك وقد زادت حدة صوته: يكفيك يا كاثرين، يكفيك وإلا...

فانطلق صوتها أقوى من الرعد: يكفيك أنت. لقد أخطأت يا سيدي، أخطأت، لقد تسرعت كثيرا، هل نَسيت أعمالنا؟ كيف نعمل ويوجد غريب في الجوار لا نعرف من يكون؟

أجابها بصوت منكسر محاولا تهدئتها: ولكن يا عزيزتي...

فقاطعته بحزم: ولكن تستطيع تعديل الأمور، لقد أفاقت الفتاة فمُرها بالمغادرة وأعطها بعض المال وستطير فرحًا به ويكفينا أنا تحملنا مشرَّدة ليلة بأكملها.

صمت مارك ولم يجب لكنها قالت بصوت أشد حزما مما سبق: أليس كذلك؟

حسنا، ابعثي بها إلي وسأكلمها بنفسي. ارتسمت بسمة السرور الباردة على وجهها لتغطي ما ارتسم عليه من قسمات وحش مكشّر عن أنيابه بعدما أعطي ما أراد. انسحبت بهدوء وأغلقت الباب وراءها، تاركة مارك في بحر همومه و أفكاره الواسع تتخبطه الرياح وهو ربّان سفينة بلا مِقْوَد!

في تلك الأثناء، كانت (هيلين) قد أنهت فطورها وملأت معدتها كما يتهيّأُ الإنسان لساعة عسرة أو حرب حيث يشحّ الطعام، ثم ارتدت ملابسَ كانت ساندي قد جهزتها لها فكانت مناسبة جدًّا من حيث القياس وكأنها قد فصلت

خصيصا لها. جلست على سريرها وهي تحاول استيعاب ما يجري حولها، أحقًّا بدت الدنيا تبتسم في وجهها بعد عبوس دام ثمانية عشر عاما؟ جرفتها الأفكار كما تجرف المياه الحصى الناعم لتغسل عنه طبقات التراب التي عَلَتْهُ، فتذكرت خاتمها الذهبي الذي ولدت وهو معها فهو بقية من أهلها الذين لا تعرفهم، طارتْ مسرعة إلى ثوبها الممزّق واستخرجته منه ثم ضمته إلى صدرها وقبلته، وكأنها استرجعت جزءًا مهمًّا منها، ثم ارتدته فكان متربعًا على أصبعها ليزيد أناملها جمالا وإشراقا.

وبينما هي سابحة في أفكارها دقّ الباب ودخلت كاثرين، فقامت (هيلين) منتصبة وقد ساورها الخوف والقلق؛ فقدوم كاثرين أكسبها شعورًا أن ما قد نالته من نعيم سائر إلى الزوال.

قالت كاثرين بصوتها الهادئ البارد: إن السيد مارك يطلبك فأسرعي بالنزول إليه، أعتقد أن صحتك قد تحسنت وزال عنك ما كان البارحة من مرضٍ فهيا.

كانت نظرات كاثرين ثاقبةً حاقدة، كانت تلقي بنظراتها التي تنم عن احتقار وازدراء و(هيلين) تتلقى تلك النظرات وهي لا تملك شيئًا غير الطاعة.

سارت كاثرين ولحقتها (هيلين) بخطوات حائرة، وقد وضعت قدميها على بداية سلم طويل بدا لها بلا نهاية، امتلأ الحائط بصور كبيرة لأشخاص تدل ملامحهم على العظمة، سارت طويلًا وقد ملكتها الدهشة لما رأته من كبر القصر الذي يسكنه هؤلاء الناس وفخامته، فبينما كانت قدماها تهبطان درجات السلم الخشبي الذي زخرفت درجاته بعناية بأشكال هندسية دقيقة

منتظمة، راحت عيناها تتجوّلان بين سقف القاعة الكبيرة الذي امتلأ بالزخارف والنقوش واللآلئ وكأنه سماء مرصعة بالنجوم، وجدرانها التي ازدحمت بالرسوم الرائعة، أسَرتْها تلك اللوحات التي حاكت جمال الطبيعة الخلابة من مروج وأزهار وأنهار، وكأن الأنامل التي رسمتها أضافت عليها سحرا جعلها تنبض بالحياة، ولما أتمت درجات السلم وهبطت إلى الأرض، تذكرت كوخ العجوز التي ربّتها، فلم يكن يتجاوز حجم الغرفة التي باتت ليلتها فيها، كان اللون الرمادي هو السائد فيه؛ الجدران، والموقد، والأواني، وسرير العجوز المعدني، كلها كانت رمادية!

وقفت كاثرين أمام باب غرفة المكتبة، دقت الباب ودخلت تتبعها (هيلين)، فقالت كاثرين للسيد مارك الذي كان واقفا أمام النافذة معطيا ظهره للزائرتين: سيدي، هذه هي الفتاة (هيلين)، أتأمر بشيء آخر؟

- كلا. يمكنك الانصراف.

انسحبت كاثرين من الغرفة وأغلقت الباب، بقيت (هيلين) متسمرة مكانها، كيف عساها تتصرف؟ وما يجدر بها أن تفعل؟ لقد كانت وجِلة من كل شيء حولها، يا له من رجل غريب، أمر برؤيتها وهو الآن يقف هناك لا يبدي ساكنا، لا بد أنه رجل صارم، كيف لا وهو صاحب هذا القصر الكبير، وبينما هي تتساءل مع نفسها وتفترض ما يحلو لها من افتراضات، التفت مارك إليها ليجد نفسه أمام زهرة جميلة بريئة رشيقة ضمَّتْ أور اقها إليها خائفة ممن يحاول قطفها، رأى فتاة طويلة القامة وذات شعر ذهبي انساب على كتفيها، وكانت عيناها العسليتان الواسعتان ناطقتين تحكيان قصصا وحكايات،

فانتابه شعورٌ غريبٌ كاد ينسيه سبب استدعائها. وفي الوقت ذاته، رأت (هيلين) شابًّا في الثلاثين من عمره كبير الجسم عريض المنكبين يهابه الكبير قبل الصغير، فزادتها هيئته خوفا بعد خوف ولكنها تمالكت نفسها ولجمت مخاوفها.

- كيف أنت الآن؟ لقد كنت البارحة متعبة جدا.

أجابت بعد أن فكت عقدة لسانها: بخير يا سيدي، شكرا لك. لن أنسى صنيعك هذا ما حييت فقد أنقذتني من موتٍ محقق.

كان صوتها عذبًا موسيقيا أشبه بتغريد عصفور في فصل الربيع، فتدارك قائلا: وددت لو كان باستطاعتي الاتصال بأهلك لأخبرهم عن مكانك، لا بد أنهم الآن قلقون جدا.

احمر وجهها خجلا، ماذا تقول له؟ أتخبره أنه لا أهل لها ولا بيت! أتخبره إن الشارع بيتها، وعنوانها الأحياء الفقيرة وأماكن التسول؟!

أدرك مارك أنه أخطأ في كلامه، لكنها أجابت بصوت حزين مكسور: أسفا يا سيدي، فأنا لا أملك أهلا ولا بيتا ألجأ إليه ولو كنت أملكهما، لما وجدتني البارحة في ساحة المدينة مغشيًّا علي.

- أنا آسف حقا، ولكن كيف تعيشين؟

قالت بحرقة: في المدينة أغنياء كثر لكن الفقراء أكثر! فعندما يأكل أولئك يأتي هؤلاء ليرتزقوا من بقاياهم، وعندما يعطون أو يطردون، يلجؤون إلى شجرة أو شجيرة ليكوّروا أجسادهم عندها، هاربين من هذه الحياة

التي تلاحقهم بقسوة، وكأنها نهر يصب لجام غضبه عليهم، ثم يأتي صباح جديد فيتكرر المشهد وهكذا نحيا وليتنا ما نحيا!

أنهت كلامها وقد زفرت زفرة مزقت قلب مارك الذي تأثر حتى دمعت عيناه وقال: أتعرفين شيئا من القراءة والكتابة؟

أجابت باستغراب: عشتُ زمنا في كوخ سيدة عجوز قبل موتها وما علمتني شيئا، سوى بعض من القراءة والكتابة لأتمكن من قراءة الصحف لها، بعدما ضعفت عيناها وما عادتا قادرتين على القراءة.

كانت الكلمات على وشك الانطلاق من فمه، لكنها توقفت بعدما لمح خاتمها الذي سقطت أشعة الشمس عليه فزادته لمعانا: من أين لك هذا الخاتم؟

- لقد وجدته العجوز في مهدي عندما كنت ملقاة على عتبة بابها.

طلب منها أن تريه الخاتم فلم تتردّد في ذلك، وراح يقلبه بين يديه وقد أصابته رعدة غريبة فلاحظ استغرابها وحاول إخفاء ما ألم به فقال: خاتم جميل احتفظي به. ثم أردف: حسنا يا (هيلين)، اذهبي الآن وسأراك غدا.

- شكرا يا سيدي.

مشت إلى الباب وخرجت منه متجهة نحو السلم فاعترضتها كاثرين قائلة: إلى أين؟

- إلى الغرفة!
- ألم يخبرك السيد مارك شيئا؟
- مثل ماذا؟ لم يقل لي سوى اذهبي الآن إلى غرفتك وسأراك غدا!

استشاطت كاثرين غيظًا: حسنا إذن، اذهبي.

اتجهت كاثرين نحو غرفة المكتبة، ودخلت دون أن تطرق الباب وهي بركان ثائر يقذف حُمَمه بلا رحمة. قطعت بَهْوَ الغرفة ثم وقفت بالقرب من مارك، وقد تخصّرت وأطلقت عنان صوتها بكل غضب وقالت: ما الذي فعلته؟ ألم نتفق على أن تجعلها تغادر؟

قاطعها بصوت ذي نبرة حادة لم تعهده من قبل: لقد قررت أنها ستبقى معنا ويكفي، فهي باقية حتى أقرّر موعد رحيلها. ثم تمتم: هذا إن كانت سترحل!

- ولم بقاؤها؟ أنعطل أعمالنا ومصالحنا من أجل دخيلة؟
- كل شيء سيكون على ما يرام والعمل سيجري حسب الخطة فلا تقلقي.
- يا إلهي، ماذا تقول يا مارك؟ إن موعد العملية القادمة يوم الاثنين أي بعد عشرة أيام، أتريد أن يفتضح أمرنا؟ عد إلى رشدك يا مارك قبل فوات الأوان، فما معنى وجود فتاة غريبة بيننا؟ أخبرني.
- إنني أصر على بقائها ولن أتراجع عن قراري هذا، مهما حدث ولا تسأليني عن السبب. لقد فكرت بأن أستوظفها عندي، تنظم أوراقي وتستلم رسائلي.
- أكاد لا أصدق ما أسمع، أمارك هذا الذي يتكلم؟ أقسم إنها سحرتك عندما رأيتها، لقد تغير حالك في دقائق.

قاطعها قائلا: أرجوك، اتركيني الآن وحدي فأنا بحاجة ماسة إلى الهدوء وصفاء الذهن.

- أنت حقا بحاجة إليهما، علك ترجع إلى رشدك! سأتركك الآن وأراك لاحقا.

ثم انصرفت.

التفت مارك نحو صورةٍ كبيرةٍ للعائلة، كانت قد علقت منذ سنوات بعيدة على الجدار، راح ينظر إلى صورته وصورة أبيه وزوجة أبيه وهي تحمل طفلة صغيرة، وإلى جانبها كانت تقف كاثرين بعبوسها الدائم، ثم تنهد قائلا: أمعقول هذا؟ مستحيل!

****

أقبل الليل على جواده الأصيل رافعًا رايته السوداء، التي غطت سماء البلاد باسودادها الرهيب والقصر ساكن لا حراك فيه. قضت (هيلين) نهارها في غرفتها، كانت تخشى الخروج منها وتخاف السلم الطويل، اعتقدت أنها إن خرجت من غرفتها فستضيع في أرجاء القصر الواسعة. نظرت إلى الساعة التي احتلت قلب الحائط وإذا بها تشير إلى الثامنة والنصف تماما، وما هي إلا لحظات قليلة حتى دقّ جرس في القصر أيقظه من سكونه، دخلت ساندي، الخادمة الشابة البشوش التي لم ترَ (هيلين) في القصر وجها مرحًا غيره.

سيدتي، العشاء جاهز، أفلا تنزلين إلى المائدة؟

هبت (هيلين) قائلة: بلى. ثم أسرت في نفسها: أخشى أن أتعود على الطعام وقد لا أجده مستقبلا! لكنها طردت أفكارها هذه وقالت: فلأعش يومي وكفى.

نزلت إلى المائدة حيث كانت تجلس كاثرين، فأحست وكأن قلبها قد انكمش وضاق، لكنها تابعت سيرها حتى وصلت إلى المائدة وقالت: مرحبا يا سيدتي.

رفعت كاثرين طرف بصرها وقالت ببرود: أهلا، اجلسي وتناولي الطعام.

جلست وهي تقول في سرها: يا لها من امرأة مخيفة. وشرعت تتناول طعامها إلا أن فضولها دفعها للسؤال: ألا يتعشى السيد مارك؟

أبدت كاثرين انزعاجًا ملحوظًا من السؤال أخافت (هيلين) بانقباض قسمات وجهها العابسة: السيد مارك لا يتعشى الآن.

أطرقت (هيلين) وتابعت تناول عشائها حتى انتهت فقامت وقالت: تصبحين على خير يا سيدتي.

- تصبحين على خير.

انصرفت إلى غرفتها وقد بدا السلم أكثر رهبة والليل قد هبط بجناحيه وأشعة الشموع ساقطة، على خيالات الصور الكبيرة على جانبه؛ فبدا أصحابها وكأنهم يرمقونها بنظرات مخيفة، صعدت السلم بسرعة حتى وصلت غرفتها ونبضات قلبها تتراقص خوفا. كانت الشموع قد ألبست غرفتها ثوبًا أصفر شاحبا، توجهت إلى النافذة المطلة على الحديقة الكبيرة، وكأنها تبحث عن ملاذ، لمحت الأشجار وهي تتراقص استجابة لنداء الرياح التي بدأ وقعها على الطبيعة يزداد، كانت تصرصر بين الأشجار والأعشاب حاملة معها الهواء القارص، الذي كان ينثر الثلوج كما تنثر الأزهار حبوب اللقاح، راحت تراقب بلورات الثلج وهي تتجمع على النافذة، أحست ببرد الجليد فدخلت فراشها

الدافئ وقد تدثرت بينما أغلقت مقلتيها خوفا من ماضٍ قريب وأملا بصبح مشرق جميل، كانت تخشى النوم، خافت أن يوقظها من هذا الحلم الدافئ ليعيدها إلى واقعها القاسي، لكنها سرعان ما استسلمت لسحر النوم العميق.

همسـات فـي المطبـخ

كان بَهْوُ القصر ساكنًا وغرفه أكثر سكونا، خالية من الحركة إلا من أنفاس النائمين فيها، بينما ظل المطبخ مستيقظًا، تتردد بين أرجائه همسات ساندي وبيتر، الخادمين الوفيين، كانا هما الآخران يبحثان أمر (هيلين) الذي بدا وكأنه لا يعنيهما ولكنه كان أكثر أهمية من ذلك بكثير.

- ألا ترين يا عزيزتي أن أمر هذه الغريبة يثير الريبة في القصر؟
- لا أعرف. ربما، لكنها بدت لي طيبة قد أرهقتها مصائب الحياة وأهوالها.
- مظهرها يشير إلى ذلك بوضوح ولكن لا تنخدعي بالمظاهر أبدا، فقلما تصدق، ترى ما الذي سيفعله السيد مارك معها؟
- لقد سمعت الخدم يتناقلون أنه سيبقيها إلى أجل غير معلوم.
- غريب! أتو افق السيدة كاثرين على أمر كهذا؟
- لا تذكر اسمها أمامي فمجرد سماعه يخيفني، وعلى كل فأنا لا أراها تو افق على ما يحدث أبدا، لو أنك رأيتها ور أيتَ نظراتها التي كانت تقذف بها الفتاة المسكينة.
- أي فتاة مسكينة يا عزيزتي؟
- ما بك يا عزيزي؟ الفتاة الدخيلة، (هيلين)، أبدأت تنسى؟ لا تزال في الأربعين من العمر!

أجابها وقد بدت عليه علامات النعاس فراح يتثاءب ويقول: إن الكَرى قد وجد إلى مقلتي سبيلا، كم الساعة الآن؟

- إنها تشير إلى الثانية عشرة بعد منتصف الليل، تصبح على خير يا عزيزي.
- تصبحين على خير.

قام كل منهما إلى غرفته آمنا، لم تتمكن ساندي من الاستسلام للنوم بسهولة، فكيف للنعاس أن يغلب قلوبًا مغرمة شغفها الحب والغرام، كانت مغرمة ببيتر، راحت تتذكر المرة الأولى التي التقت فيها عيناها بعينيه عندما جاءت للعمل في هذا القصر قبل خمس سنوات، كم أعجبت بقوته وشجاعته، وكم افتتنتْ ببراعته في العناية بالخيول، لم تكن لتنسى كيف أمضى ليلةً إلى جانبها يسهر على راحتها عندما أقعدتها الحمى، كانت تستشعر الدفء في يديه، كم تمنتْ ألا تزول الحمى عنها أبدًا لتحظى بوقت أطول إلى جانبه، كانت تعتقد أنه رجلٌ خجولٌ لا يجرؤ على الاقتراب منها ربما لفارق السن بينهما، إلا أنها لم تكترث لذلك الفارق قط، فلطالما اعتقدت أن الحب لا يعرف أعمارا، شغفها حبه فلم تمتلك نفسها يوما حتى دخلت غرفته و أقبلت عليه مندفعة فعقدت الدهشة لسانه عندما قالت له: أتتزوجني يا بيتر؟.. ومن هنا أعلنت خطوبتهما التي طالت بعض الشيء، كانت تعتقد أنه يحتاج مزيدًا من الوقت ليعتاد على فكرة الزواج، فأراحها هذا الاستنتاج وسكنت نفسها إليه، بينما سلّمت مفاتيح أحلامها للنوم الذي انتصر أخيرا.

شكـوك متلاطمة

في الصباح الباكر عندما بدأت أولى خيوط الشمس الذهبية تغازل بلورات الثلج المتناثرة، استيقظ مارك من نوم لم تجد نفسه فيه الراحة، لقد قضى ليلته قَلِقًا مفكرا، تخيل الحياة وكأنها لاعبُ كرة ماهر والناس هم تلك الكرة تدحرجها كما تشاء وحسبما تشتهي! كادت أفكاره تفقده صوابه، لم يفارق منظر الخاتم مخيلته، كان متأكدًا أنه رأى ذلك الخاتم من قبل، ولكن أين ومتى؟ لم تسعفه ذاكرته، لقد كان ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ عندما كان في الثانية عشرة من عمره، تذكر أحداثا غامضة، تذكر زوجة أبيه الفاتنة وابنتها الصغيرة فكادت الذكرى تثير جنونه، تناقل في مخيلته صورة "سارة" زوجة أبيه وهي على فراشها والحمى قد ألهبت جسدها، كان وجهها أحمرً قاتنًا يتصبب عرقا، تذكر منظر الطفلة الباكية إلى جوارها، لم تكن كاثرين تسمح له بالاقتراب منهما فكان يختلس النظر أحيانًا من ثقب الباب، كان صغيرًا حينها يقضي معظم أيامه في مدرسته الداخلية، تذكر كاثرين، كانت في العشرين حينها، شابة لكنها قاسية باردة المشاعر كما هي دوما، تذكر يوم وفاة سارة وطفلتها الرضيعة إلى جانبها، كانت آخر أنفاسها أن اعتنوا بابنتي، كان في المدرسة حينما جاءته الأخبار أن الطفلة قد لحقت بأمها بعد أيام قليلة، ولكن... ذلك الخاتم الذهبي الذي يشع لمعانًا كلما سقطت عليه أشعة الشمس، لم يكن لينساه.

أمِن المعقول أن يكون ذات الخاتم الذي كان في يد (هيلين)؟ انتصب واقفًا وقد عصر رأسه بيديه وصرخ: مستحيل! أراد التأكد، ولكن ممّ؟ أراد أن يتأكد من أن تلك الدخيلة المشردة التي كانت تستجدي الناس في شوارع المدينة، بوجهها الجميل الشاحب إنما هي أخته!

أزال الفكرة عن رأسه وهو يلوم نفسه بشدة، لقد أخبرته كاثرين بموت الرضيعة ولكن، كاثرين المرأة السر، أخذ يضرب جدار الغرفة بقبضته، كان عليه أن يتحقق من الأمر، ولكن كيف وممن؟ أمن كاثرين وقد كانت تكره زوجة أبيه وابنتها كرهًا شديدًا كما تكره الناس جميعا. كان يعلم أنها ستنكر ذلك، ولربما أذت الفتاة المسكينة لمجرد الشك بالأمر، ومع ذلك كان عليه التأكد.

خرج من غرفته وقد أحسّ بثقل الهواء في صدره، فتح بابًا وأغلق آخر، وأخيرا وجد نفسه في الحديقة البيضاء وسط الثلوج المتلألئة، توجه إلى شجرة التوت وقد غطتها الثلوج، اقترب منها وكأنه يريد النصيحة، لمح شيئًا مدفونًا تحت اللآلئ البيضاء على غصنها المتجمد، أزال الثلج فإذا هو العصفور الصغير الذي جاء البارحة معزيًّا الشجرة وها قد لقي حتفه عندما لم ترحمه الطبيعة.

مشى خطوات متثاقلة حائرة وقد كانت قدماه الثقيلتان تتركان البصمات الكبيرة على لوحة الثلج الصماء، لا زالت الأفكار تعصر ذهنه، كان تعبًا مرهقًا وحيدًا لا يجد من يبوح إليه فرفع صوته قائلا: مستحيل ما أنا فيه، مستحيل!

رد صوت انبعث وراءه قائلا: ما هو المستحيل يا عزيزي؟ التفت نحوها مذعورًا فإذا هي كاثرين بابتسامتها الباردة وقد تقدمت نحوه قائلة: الجو بارد هنا وأخشى عليك من البرد، هيا إلى الداخل يا عزيزي.

نظر في عينيها، كانتا باردتين كبرودة الشتاء، مجردتين من معنى الحنان على الرغم من كلماتها الدافئة، أراد البَوْحَ لها بما يثقله لكنه تذكر أنه أمام المرأة السر فآثر السكوت والدخول إلى القصر انصياعا لها وهو يحاول إخفاء ما ألم به من اضطراب.

دخلا إلى غرفة المكتبة وجلسا أمام المدفأة فقالت كاثرين وهي تتفحص قسمات وجهه: هل أبعث إليك بـ(هيلين) لتخبرها بما كنت قد توصلت إليه؟

أجابها وكأن أفعى قد لسعته عندما ذكرت اسم (هيلين) أمامه فقال: لا... لا أريد أن أرى أحدًا اليوم فأنا متعب، ولتبقى الفتاة على حالها، أهذا واضح؟

أجابت كاثرين وهي تحافظ على ابتسامتها الباردة: مثلما تريد... كانت تعرف طباع مارك، فهو دائم التردد ولذلك لم تكن لتستغرب منه شيئا كهذا، فانسحبت من الغرفة بهدوء.

وبينما كانت تسيرُ في أنحاء الصالة الكبيرة اعترضها الخادم بيتر قائلا: سيدتي، أود التحدث إليك بأمر مهم.

رأت الإصرار في كلامه فأشارت إليه، ودخلا إلى غرفة وأغلقت الباب وراءها وقالت: قل يا بيتر ما عندك.

- سيدتي أرجو أن لا تعتبري هذا تدخلا مني، إنما يدفعني إلى السؤال حرصي على سلامتكم وسلامة سيدي مارك، إنكم تعرفون أن عملنا أشد الأعمال خطورة، وقد بات موعد العملية التالية قريبا، فكيف سننجزها وهناك غريب عنا لا نعرف عن أمره شيئًا وعملنا يحتاج إلى منتهى السرية؟

بدت الصرامة على وجهها وهي تقول: أنت محق يا بيترفيما تقول، ولكن السيد مارك مدرك لما يفعله وهو حريص على سلامة الجميع، و أنا متأكدة من أنه سيتدبر أمر هذه الدخيلة وأن العملية ستتم على أكمل وجه.

بدا الارتياح على وجهه، فقال وهو يتنفس الصعداء: شكرا لك يا سيدتي على ما قلته، لقد أزلت عني هما ثقيلا كان يثقل كاهلي، اسمحي لي بالانصراف.

ظلت كاثرين متسمرةً مكانها بعد انصر افه وقد غطى الهم وجهها وقالت في سرها: أرجو ذلك يا مارك، أتمنى ألا تكون هذه إحدى نزو اتك فالوقت غير مناسب لذلك، أرجو أن تتصرف بأسرع وقت ممكن.

كان حرصها على سرية العملية منبثقًا من خوفها على حياتها وسلامتها الشخصية، لم يكن يهمها أمر من معها، كانت لغة الـ"أنا" هي الوحيدة التي تفهمها، أدركت كل الإدراك أن وجود الدخيلة يشكل خطرًا على حياتها لذلك كان لا بد من التخلص منها، فاتخذت من التظاهر بالحرص على سلامة العملية ذريعة لها.

سوسنة بين الثلوج

استيقظت (هيلين) من نومها متأخرة، تناولت فطورها ثم وقفت أمام نافذتها تستعرض أحداث البارحة تساءلت عن سبب تغير ملامح السيد مارك عندما رأى الخاتم، تناولته من جيبها ونظرت إليه ببريقه الأخاذ وقالت: عجبا، لم أفكر ولا مرة ببيعك أيها الخاتم مع أني كنت بحاجة لثمنك ألف مرة!

راودتها رغبة هيّاجةٌ بالخروج من الغرفة والتجول في أنحاء القصر والتمتع بجماله، تمنّتْ الخروج إلى الحديقة لتتنفس هواءها البارد العليل لكنها خافت المحاولة ولم تجرؤ على الإقدام على ما أرادت، فوقفت أمام النافذة متحسرة على جمال الطبيعة، أحست أنها باتت كالعصفور السجين لا يحق له التغريد إلا في قفص ذهبي جميل لكنها سرعان ما نفضت تلك الأفكار عنها، عندما تذكرت ما كانت عليه وما صارت إليه. ثم عادت وتذكرت السيد مارك، ترى لماذا لم يرسل في طلبها كما قال لها البارحة؟ عله قد نسي الأمر.

طرق الباب طرقة باتت (هيلين) تعرف صاحبتها، إنها ساندي الخادمة البشوش، دخلت الغرفة والابتسامة تعلو وجهها وهي تقول: سيدتي، جئت أنظر إن كنت بحاجة لشيء ما؟

- كلا، ولكن كنت أتساءل إن كان بالإمكان... لم تكمل عبارتها بعد أن سيطر عليها الحرج والقلق، فبادرت ساندي بالقول: ماذا يا سيدتي؟

استدركت (هيلين) واستجمعت جرأتها وقالت: كنت أتساءل إن كان بالإمكان الخروج إلى الحديقة.

ارتبكت الخادمة واضطربت ولم تعرف بم تجيبها فتلعثَمت قائلة: أتمنى لو كنت قادرة على مساعدتك يا سيدتي، لكن هذه الأمور لا تقررها إلا السيدة كاثرين.

شعرت (هيلين) بخيبة أمل فردت بصوت حزين: لا بأس يا ساندي، انسي الأمر.

- كما تشاء سيدتي، أتأمرين بشيء آخر؟
- كلا، شكرا يمكنك الخروج الآن.

عادت (هيلين) لوحدتها، تساءلت من تكون كاثرين تلك؟، لقد بدت أكثر من مجرد مديرة للقصر فهي الآمرة الناهية فيه دون منازع وكأنها صاحبته ومالكته، حتى إن الخدم يخشونها أكثر من خشيتهم للسيد مارك! كانت متربعة على فراشها عندما طرق الباب طرقة لم تكن طرقة ساندي، فعاودها الخوف ثانية خصوصًا بعد أن علمت أن القادم كان كاثرين، دخلت والابتسامة الباردة قد امتزجت بعبوسها الشاحب فزاد وجهها قوة.

قامت (هيلين) من سريرها وهي تنظر إلى كاثرين، محاولة قراءة عينيها لمعرفة سبب زيارتها دونما جدوى لكن الأخيرة قالت: جئت أرى إن كانت الصغيرة بحاجة لشيء؟

بدا الانزعاج على وجه (هيلين) التي أخفت في سرها: عادت إلى لفظة الصغيرة هذه. أجابت: شكرا لك سيدتي، أنا بخير.

كانت الحيرة والخوف معا وقد خالطهما الخجل تعلو وجه (هيلين)، فقد أرادت أن تسأل كاثرين بأن تسمح لها بالخروج من الغرفة لكنها خافت ذلك، لاحظت كاثرين ذلك التردد فبادرت بالسؤال: هل تودين قول شيء؟

وددت الخروج من الغرفة...

قالت جملتها بينما استحوذ الارتباك على أنفاسها، فتسارعت باضطراب وقد زادت حمرة وجهها الذي نكسته نحو الأرض، بينما أرسلت طرف بصرها نحو السيدة كاثرين التي حافظت على سكونها رغم غيظها وغضبها.

- تريدين الخروج إذن؟

لكن (هيلين) لم تنبس ببنت شفة واكتفت بهزرأسها بأن أجل، فتابعت كاثرين: إن السيد مارك قد أمر بتأمين سُبل الراحة لك، وما دام خروجك من الغرفة يريحك فلا بأس، ولكن ستكون ساندي مر افقة لك أينما ذهبت خارج الغرفة.

كادت (هيلين) تطير فرحا بما سمعت فقالت: شكرا لك يا سيدتي، شكرا.

خرجت بصحبة ساندي إلى الحديقة، كان نهارًا صحوًا على الرغم من الثلوج المتراكمة، دارت أنحاء الحديقة الواسعة، كانت الحديقة ساكنة يحكي صمتها قصة أشجار كانت تنعم بالحياة في يوم من الأيام وحكاية عصافير، كانت تزدحم في السماء لتنشر ألحانها ثم هاجرت تاركة تلك الألحان

يتيمة، حيث جاء الثلج ليلبس الأرض كساءه الأبيض وليجبرها على النوم، ولكن هيهات أن يطول هذا الركود فالشمس بالمرصاد والربيع في الأفق.

- أخبريني يا ساندي، منذ متى و أنت تعملين في هذا القصر؟
- خمس سنوات يا سيدتي.
- هل أنت متزوجة؟
- احمروجهها خجلا ثم قالت: إنني مخطوبة يا سيدتي، من الخادم بيتر، إنه يكبرني سنا ولكنه إنسان طيب.
- لا بد أنك تحبينه.
- زادها ذلك خجلا وقد هزت رأسها مو افقة.

اقتربتا من شجرة التوت، بينما كان مارك في غرفة المكتبة متأملا عند نافذتها ينظر إلى الحديقة البيضاء، رأى (هيلين) والخادمة قد وقفتا إلى جانب الشجرة وقد سمعهما تتحاوران:

- إن هذه الشجرة يا سيدتي هي أحب أشجار الحديقة إلى قلب السيد مارك، طالما أتى إليها وتحدث معها.
- حقا؟

خطت (هيلين) بضع خطوات، فلمحت العصفور الميت مطروحًا على الأرض إلى جانب الشجرة فرفعته وهي تقول: انظري يا ساندي إلى هذا العصفور المسكين، لقد أماتته الثلوج ولم ترحمه الطبيعة بقسوتها التي لا تعرف بشرا ولا حيو انا. ثم راحت تقبله وتدفنه بين الثلوج.

- لا عليك يا سيدتي إنه ينعم الآن بالدفء والأمان.
- لا بد أنه تخلف عن سربه، لقد قاسى الجوع والبرد وحيدا، لا بدّ أنه نادى أصدقاءه في السماء البعيدة بأعلى صوته ولم يجيبوه، حتى ضعف صوته وخفت، يا له من طيرٍ تعِس!

ثم أخذت تبكي. لم تكن تبكي العصفور فحسب، لقد كانت تبكي المحرومين، أولئك الذين يغشى عليهم ولا يجدون من ينتشلهم، كم كانت محظوظة من بين كثيرين كُتب عليهم أن يكون الشقاء رفيقهم.

- هوني عليك يا سيدتي، يا لقلبك الحنون!

راحت (هيلين) تكفكف دموعها: أنا آسفة يا ساندي، هيا بنا من هنا.

أما مارك فقد ابتعد عن النافذة وهو يقول في سره: يا لها من فتاة رقيقة، كاللحن العذب، هي سوسنة بين الثلوج.

الـذهــول

كانت كاثرين في غرفتها تقف أمام المرآة، تتفحص وجهها وكأن لها دهرًا لم تره، دققت بالخطوط التي بدأت تشكل شوارع متقاطعة مزدحمة، ثم قالت بصوتها البارد الهادئ: أف لك أيها الدهر، وتعسًا لك أيها الوجه. أدارت وجهها عن المرآة وهي تقبض على يديها: يجب عليك أن تتصرف يا مارك، يا لك من رجل عديم المبالاة. كادت تضحك رغم غضبها؛ فهي آخر من يتحدث عن عدم المبالاة، لكنها غطت على رغبتها في الضحك وقالت وهي تخرج من الغرفة: يجب عليك ذلك، يجب.

اتجهت نحو غرفة المكتبة، حيث السيد مارك، طرقت الباب ودخلت، كانت تعرف أنه ليس بمزاج جيد وأن أي عبارات تأنيب ستثيره وستكون عونا له في تفجير ما به من هموم متراكمة؛ فحبذت استعمال أسلوب النصح والتذلل فابتدأت حديثها قائلة: عزيزي، أراك مشغول البال مهموما، أفلا أفضيت لي بما يشغلك ويهمك؟

بقي مارك شارد الذهن ولم يجب، كان محدقًا في صورة العائلة، لكن كاثرين تابعت: إن هذا الشتاء بارد وقد طال مكوثه، لكني أرى الربيع في الأفق، أرى أنه وجب عليك الاستراحة فيه فقد أنجزنا الكثير هذا العام، ألا تتفق معي في ذلك؟

لم يجبها أيضًا وبقي صامتًا محدقًا في الصورة، كان صمته يثير غضبها ويزيد انفعالها الذي كان لا بد من إخفائه، فتحاملت على نفسها وقالت: لقد قاربت الثلاثين يا عزيزي، أما فكرت بالزواج والاستقرار فالعمر يجري ولا ينتظر فإن لم تسبقه سبقك.

لم يبدِ مارك أي حركة لكن الكلمات خرجت من فيه قائلا: لقد كانت "سارة" جميلة ساحرة، ألا ترين ذلك؟

ذهلت كاثرين لما سمعت، ما الذي يفكر به؟ ولماذا طرقت سارة باب أفكاره في هذه الساعة؟ فاتجه بصرها نحو الصورة المعلقة وشخص بصرها نحو صورة سارة وابنتها، ركزت نظرها على صورة الصغيرة وكأنها لم تر الصورة منذ عهد بعيد على الرغم من كونها معلقة هناك منذ سنوات طويلة، أزعجتها عبارته تلك، فقد أيقظت فيها ذكريات قديمة عملت على دفنها مع الأيام؛ فضاقت به وبشروده ذرعًا ثم قالت بعدما وصل الغضب عندها أوجه: مارك، لقد بات الإثنين قريبا، فهلا فعلت شيئًا بدلًا من شرودك هذا؟ إن كل من في القصر يتساءل عن سبب وجود هذه الدخيلة وعن خطة العملية التي لم تتضح معالمها بعد، لقد دارت الإشاعات بين الخدم.

تقدمت نحوه وقد ربتت على كتفه وحننت صوتها وقالت: لا بد أن تفعل شيئا يا عزيزي، صارحني ما الذي يمنعك من طردها؟ هل تخجل من ذلك؟ إن كنت خجلا فعلا فإن باستطاعتي التكفل بالأمر. سكتت لحظات ثم تابعت: وإن كنت قد أعجبت بها فاعلم إنه ليس بالوقت المناسب ولا هي بالمرأة المناسبة و...

قاطعها بصوت هادئ وما زالت عيناه غارقتين في الصورة: اتركيني الآن يا كاثرين فأنا بحاجة إلى صفاء الذهن، أرجوك يكفيني ما قلت فلم أعد أحتمل المزيد!

إنك تدخل الريبة في نفسي يا مارك، ما عدت أفهمك! ثم انسحبت وغادرت الغرفة بينما نكّس رأسه نحو الأرض وأغلق عينيه وهو يشعر بالضياع!

بدأ الشك يراود كاثرين، لقد بدا مارك غريبا، استوقفتها كلماته القليلة تلك، بماذا عساه يفكر؟ طافت الظنون بها بعيدا، فامتطت فرس الماضي البعيد و انتقلت بذكرياتها إلى ما قبل عشرين عاما عندما تزوج والدها من سارة، لقد كان زواجه هذا أشبه بسكين غرس في صدرها، كرهت سارة وكل ما يأتي منها، تذكرت ابنتها الصغيرة، لقد كانت بدرًا جميلا، كانت تلك الذكرى كفيلة بأن تشعرها بالضيق والاختناق فقامت من كرسيها والعرق يتصبّب من جبينها، نظرت نحو المرآة فرأت وجها منفعلا يفضح صاحبه ثم لمحت الخطوط البيضاء التي تسللت إلى ليل شعرها، وكأنها لصوص دخيلة. استفاقت من أفكارها على صوت قرع الباب، لقد كانت ساندي والخوف باد على وجهها: سيدتي، طلبتني؟

- أنت من اهتمت بشؤون الفتاة (هيلين)، أليس كذلك؟
- أجل سيدتي كما أمرت.

راحت كاثرين تدور ببطء حولها وتقول: وكيف وجدتها؟

- إنها فتاة طيبة يا سيدتي.

- وماذا أيضا؟
- لا شيء سيدتي.
- ألم تخبرك شيئا؟
- مثل ماذا يا سيدتي؟
- يا لك من خادمة غبية، أتردين سؤالي بسؤال؟ ألم تقل لك شيئا عن حياتها السابقة؟ عن انطباعها عن القصر وساكنيه، عن السيد مارك؟ عمّا تنويه في الأيام القادمة؟
- لقد قالت لي: إنها كانت تعيش حياة معدمة قبل قدومها للقصر وإنها ممتنة للسيد مارك لأنه أنقذها ولم تذكر لي شيئا غير ذلك.
- اذهبي، وحاولي أن تحصلي منها على معلومات أخرى.
- حاضر سيدتي.

خرجت ساندي وهي تتمتم في سرها: يا لها من امرأة قاسية، لا تعرف الشفقة، من تظن نفسها لتتصرف كما يحلو لها، وما شأني أنا بما يقوله ويفعله الآخرون؟ لقد نعتتني بالغبية، حقا أنا كذلك! ثم دخلت بنوبة بكاء فجاءها صوت من بعيد، كان بيتر الذي تقدم نحوها ثم اعترضها فتوقفت والغضب في عينيها: لم أعد أحتمل يا بيتر البقاء في هذا البيت، لم أعد أريد المكوث فيه أبدا.

- دعيني أخمّن، لقد تحدثت مع السيدة كاثرين أليس كذلك؟
- أجل، تلك المرأة لا تعرف الرحمة أبدا، تصور أنها نعتتني بالغبية! ما لا أفهمه هو كيف لها أن تتصرف وكأنها صاحبة البيت والسيدة فيه.

- اخفضي صوتك، قد تسمعنا!
- أخبرني لماذا تتصرف تلك المرأة وكأنها سيدة القصر الأولى. ولماذا علينا أن نخشاها؟ أخبرني هيا.
- إنها كذلك... أقصد إنها بمثابة السيدة، ونحن خدم هنا لا يجوز لنا أن نتذمر بل نؤمر فنطيع.
- يا إلهي، إلى متى سنظل عبيدا هكذا؟ ثم نظرت إلى عينيه وقالت: إنك تخفي عني شيئا يا بيتر!
- أنا؟ أبدا يا عزيزتي. كل ما في الأمر أنك مرهقة وبحاجة للراحة، هيا بنا.

ستمكثين معنا !

حاول مارك التخلص من شكوكه التي حاصرته وضيقت عليه، قام ونظر إلى نفسه في المرآة وقال: لا بد من التقدم فالسلم درجاته عديدة ولن يتحقق المبتغى إذا ما بقيت متسمرا على درجته الأولى، تجاوز الدرجة الأولى هو الأصعب دوما. ثم نادى بأعلى صوته: بيتر، يا بيتر.

جاءه بيتر وهو يحث خطاه: أمرك سيدي. فدخل غرفة المكتبة وهو ينتظر أوامر سيده.

- اذهب يا بيتر ونادي الآنسة (هيلين).
- سمعا وطاعة يا سيدي.

نزلت (هيلين) السلم الذي بات مألوفا و أقل رهبة، قطعت الطريق حتى وصلت إلى غرفة المكتبة، طرقت الباب ودخلت فقالت: مساء الخير سيدي.

- مساء الخير، لقد أخبرتني مسبقا أنك تعرفين القراءة والكتابة.
- صحيح سيدي.
- حسنا إذن، أنا بحاجة إلى من ينظم الرسائل التي تردني يوميا بالإضافة إلى بعض أعمالي البسيطة، فما رأيك أن تقومي بهذه الوظيفة وستمكثين معنا إلى ما تشائين؟
- أنا لا أصدق يا سيدي، أحقا ما تقول؟
- إنك تستحقين ذلك.

- شكرا جزيلا يا سيدي ولكن...
- ولكن ماذا؟
- وددت لو أعرف ما هو عملك يا سيدي؟

بدا الامتعاض على وجهه، فقد تمنى ألا تسأل ولكن كان لا بد له من الإجابة فقال: حسن، إني أعمل بالتجارة، وأنا دائم الأسفار داخل البلاد وخارجها.

- متى أستطيع تسلم العمل يا سيدي؟
- غدا إن شئت.
- أجل سيدي، وشكرا لك ثانية. سأنصرف الآن.

تنهد مارك بعد خروجها ثم نظر ثانية إلى وجهه الشاحب في المرآة وتساءل عما إذا كان ما يفعله صوابا، لقد أقبل على خطوة مهمة دون استشارة كاثرين، لقد تذكر كاثرين، ترى ماذا ستكون ردة فعلها عندما تعرف أن ما أخبرها بشأن عمل (هيلين) قد أصبح حقيقة؟ لا بد أن بركانها سينفجر مرة أخرى.

صديقي... ملجئي

هب مارك من مقعده وقد ضاق ذرعا بالقصر ومن فيه، دق الجرس الذي كان بين يديه فدخل بيتروقال: أمرك سيدي.

- جهز العربة يا بيتر، فأنا ذاهب إلى المدينة.
- سمعا وطاعة يا سيدي.

توجه مارك إلى حيث وضع قبعته ومعطفه الأسودين فارتداهما ونظر إلى وجهه في المرآة ثم تنهد وخرج، استوقفته كاثرين عند خروجه وقالت مستغربة: أرى سيدي مغادرا، فهل لي أن أسأل إلى أين؟

- إلى المدينة، لن أتأخر سأعود الليلة.
- أوجد جديد؟
- كلا.

خرج من الغرفة وتوجه إلى العربة التي جهزها بيتر، كان الجو باردًا والشمس قد استعدت للمغيب، ركب العربة وأشار إلى بيتر بالانطلاق، صهلت الخيل وسارت بالعربة، كانت الطريق زلقة وقد غطتها الثلوج وأشعة الشمس الحمراء قد أكسبتها لمعانا فبدت الطريق لناظرها بر اقة متوهجة، راح مارك ينظر إلى حافة الطريق حيث عجلاتُ العربة تدور وتدور بلا كلل، عاودته الأفكار التي نغّصت عليه نومه وحياته فأغلق عينيه والعربة تتمايل يمينًا ويسارًا استجابة لتعرجات الطريق. تذكر الأعمال المعلقة التي تنتظره،

لقد كانت كاثرين محقّة، لقد قرب يوم الإثنين ولا بد من الاستعداد له، ولكن كيف ذلك و(هيلين) هناك؟ هو لا يجرؤ على طردها وخصوصا بعدما راودته الشكوك بأمرها، كما إنه لا يستطيع تأجيل موعد العملية فما العمل؟ أيمضي بالخطة قدمًا وكأن شيئا لم يكن؟ ولكن كيف إن اكتشفت (هيلين) أمرهم؟ لقد غدا مارك سجينًا في قفص الهواجس والأفكار التي جعلته حبيسا عندها.

دخلت العربة في أحضان شوارع المدينة المضيئة التي لا تكاد تتغير، كما كانت دومًا مكتظة بأناس كثر في حركة مزدحمة لم يمنعهم البرد والجليد من الخروج إلى ساحة المدينة حيث الاحتفالاتُ المستمرة والكرنفالات التي لا تنتهي، لمح أثناء سير العربة فتاة صغيرة تبكي بردًا وجوعا، تستجدي هذا وتستعطف ذاك ولا أحد يجيب، ألقى إليها بقطعة ذهبية رسمت على وجهها ابتسامة شاحبة ذكرته بـ(هيلين) وقد اعتصر الحزن قلبَه، استمرت العربة في طريقها حتى توقفت أمام بيتٍ أنيقٍ حيث نزل مارك وقد أشار إلى بيتر أن ينتظره ريثما ينهي زيارته. كان ذلك منزل صديقه جاك، تعرف عليه أثناء دراسته في المدرسة الداخلية، ينتمي إلى عائلة متوسطة، كانت مبادئه و أفكاره هي ما جمعته بمارك، اتفقا على احترام الإنسان فالكل سواسية، اعتبرا الطبقية شكلًا من أشكال التخلف التي يجب نبذها، كان جاك خيرَ خليل لم يبخل يوما بتقديم النصح والعون لصديقه مارك فكان مبادرًا بالمساعدة في شتى الظروف، كان ذلك كفيلا بسد الثغرات التي خلفها غياب الأهل في حياة مارك.

تقدم نحو المنزل، قرع الباب ففتحته امرأة ارتسمتْ على وجهها ابتسامة الترحيب عندما رأت مارك وقالت: أهلا بك يا مارك، كيف حالك يا عزيزي؟ سيسر جاك كثيرا برؤيتك.

- أنا بخير يا عزيزتي ميري شكرا لك.
- أرجوك تفضل بالدخول فالجو بارد هنا.
- شكرا لك. دخل وخلع معطفه وقبعته وناولهما لميري التي قالت: لم نرك منذ زمن، أما زلت مشغولا بأعمالك التي لا تنتهي؟!
- أنت قلتها "لا تنتهي"... جلس قرب المدفأة ومد يده طلبا للدفء.
- سأحضر لك فنجان قهوة ريثما يأتي زوجي.

نظر مارك إلى الصالة، كانت صغيرة و أنيقة، شعر بدفء لم يحسه من قبل، إنه دفء الأسرة السعيدة الذي طالما افتقده.

أقبل جاك والابتسامة ملء ثغره: مارك... صديقي القديم. ثم تعانقا بحرارة وهو يقول: مارك في بيتي، يا لها من مناسبة سعيدة تستحق الاحتفال، كيف حالك يا رجل؟

- بخير يا صديقي.
- لا أرى ذلك في عينيك يا صديقي فما الأمر؟
- لقد كنت يا جاك خير عون لي في مصاعب كثيرة، منذ أن التقينا في المدرسة الداخلية، لقد مر وقت طويل على ذلك، لطالما كنت ملجأي الذي ألتجئ إليه عندما تضيق بي الدنيا، وهذا هو حالي يا صديقي

القديم، جئتك شاكيًا همي، لم أجد من أبثه حزني غيرك حتى كدت أجنُّ يا جاك.

- ألهذا الحد؟! أخفتني يا رجل، هات تكلم ما عندك.
- سأبوح لك ما بداخلي من شكوك وهموم، لكن عدني قبل ذلك أن ما سأقوله سيبقى سرا بيننا.
- أعدك يا صديقي.

دخلت ميري الغرفة فوجدت الصديقين قد انشغلا بحوار، لا تجوز مقاطعته فوضعت الفنجانين بهدوء و انسحبت.

مارك وقد بدا عليه الجد والحذر: قبل أيام حضرت إلى المدينة في عمل، وبينما كنت سائرا في إحدى شوارعها رأيت الناس قد تجمعوا، بشكل لافت للأنظار وأصوات الاستغاثة عالية... ثم راح يسرد له الأحداث بتفاصيلها وما يراوده من شكوك حول كينونة (هيلين) وعن خاتمها، ولما انتهى من كلامه نظر إلى عيني جاك وكأنه غريق يطلب الإغاثة، لكن جاك بقي ساكنًا صامتًا لا يبدي حراكًا لدقائق بدت طويلة وثقيلة، قام بعدها وتوجه إلى النافذة حيث يهبط المطر بغزارة في الخارج ثم قال: إنها قصة عجيبة فعلا، و أنا لا ألومك على خوفك هذا ولكن أما أشركت كاثرين بشكوكك؟

- لقد خفت منها، فإن كانت توقعاتي صحيحة، فإن كاثرين لن تتردد لحظة بإيذاء (هيلين) بطريقة ما لتتخلص منها، كما أنها ستنكر عليّ أفكاري لمجرد مصارحتها وستدعي جنوني، أنا و اثق من هذا.
- أنت على حق فيما تقول.

- ولكن ما العمل يا جاك؟ أكاد أجن سأفقد صوابي.
- ابق الليلة عندي، وسنرى ماذا نفعل غدا، فالمسألة بحاجة للتفكير والتأمل عل الصباح يأتينا بفكرة جيدة.
- لكنني أخبرت كاثرين أني عائد الليلة، كما أن بيتر بصحبتي.
- إن كنت أخبرت كاثرين بعودتك فيمكنك التحجج بالطقس الماطر، وأما عن بيتر فيمكنه المبيت معنا.
- حسنا إذن، سأناديه ليدخل.

وفي الصباح، تأخرت الشمس عن الاستيقاظ، بقي الجو غائمًا ينتظر نهوض الشمس النائمة، لكن الناس استفاقوا ولم ينتظروا بزوغها فتكفيهم بعض أشعتها المسترسلة من بين السحب ليباشروا أعمالهم، وهكذا استفاق مارك وجاك وجلسا أمام المدفأة، لم ينبسْ مارك بكلمة فقد اكتفى بالإصغاء وحسب.

- لقد فكرت مليًّا بموضوعك وأعتقد أن أسلم حل لما أنت فيه أن تمضي قدما، أي أن تباشر (هيلين) عملها، وتقوم أنت بأعمالك حتى تتأكد من شكوكك.
- وماذا بشأن كاثرين، ماذا أقول لها؟
- من الأفضل لك وللفتاة ألا تعرف كاثرين عن الموضوع شيئا، وسيساعدك أن تتصرف معها من دون غموض حتى لا تثير شكوكها.
- يبدو أنه ليس أمامي حل آخر سواه، ثم تنهد وقال: شكرا لك يا صديقي، أنت تسعفني دوما عندما تضيق بي الدنيا.

- كفاك يا رجل فأنا صديقك ويمكنك الاعتماد عليّ دوما.
- يجب عليّ أن أغادرالآن فقد تأخرت.

تعانق الصديقان ثم خرج مارك مناديا بيترللانطلاق...

يوم جديد

في القصر الكبير، استيقظت (هيلين) مبكّرة وكلها حماسٌ لمباشرة وظيفتها الجديدة، كادت فرحتها تنسيها موعد الإفطار، نزلت مسرعة إلى غرفة المكتبة فطرقت الباب لكنها لم تسمع ردًّا، استغربت الأمر فالسيد مارك ليس موجودا على عادته في مثل هذا الوقت! أين عساه يكون يا ترى؟ سمعت صوتا انطلق خلفها: لم يرجع السيد مارك بعد. التفتت وإذا بها كاثرين بعبوسها القاتم.

- أردت مباشرة عملي حسب أوامر السيد مارك.

كان الغضب في عيني كاثرين أشبه بطلقات الرصاص الثاقب: تبًّا، قلت لك إنه ليس موجودا فيكفيك أسئلة.

انزعجت (هيلين) من تلك اللهجة لكنها لم تستغربها من امرأة مثل كاثرين، تمشت في أنحاء القصر ثم خرجت إلى الحديقة وأخذت قبضة من الثلج بيديها وقالت: ليت قلوب الناس ببياض هذه الثلوج، ليت الصفاء والمودة تسود قلوب الناس كما ساد الثلج أنحاء البلاد، ليت الإخلاص شعارهم والتعاون عنوانهم، بها يمحو الناس عن الحياة غبارها فيلمع بريقها ناصعًا لا تلطخه شائبة.

لمحت عربة قادمة من بعيد يقودها بيتر، انشرح قلبها لكنها شعرت بالارتباك فتسمرت مكانها تنتظر وصول العربة. نزل مارك وقد رآها و اقفة فحياها قائلا: الجو بارد فلم تقفين هنا وحيدة؟

- علمت أنك غادرت القصر في عمل، فلم أعرف إلى أين أذهب فخرجت إلى الطبيعة.
- هيا بنا إلى الداخل.

****

وفي غرفة المكتبة قال مارك: أخبريني يا (هيلين) هل أنت مرتاحة هنا؟

- أنا مرتاحة، لكن...
- ماذا؟
- عذرا لتطفلي يا سيدي ولكن أعتقد أنه لا يجدر بي السؤال.
- قولي ولا تخشي شيئا.
- أرى أن بعض من في القصر غريبو الأطوار بعض الشيء.
- وكيف ذلك؟
- لا أعرف، مجرد شعور.
- هذا لأنك لم تعتادي عليهم بعد.
- ربما هذا يا سيدي.
- هل أنت مستعدة لتبدئي عملك؟
- على أتم استعداد يا سيدي.

- جيد، انظري إلى كل هذه الرسائل، أريدك أن ترتبيها حسب تاريخ ورودها وصنفي ما كان قادما من خارج البلاد.
- مفهوم سيدي.

سلمها الرسائل فرأى الخاتم في إصبعها، فعاوده الارتباك لكنه سيطر على نفسه وقال: إن خاتمك هذا جميل كنت أقتني واحدا يشبهه منذ زمن، أما فكرتي ببيعه يوما؟

- كلا يا سيدي، فعلى الرغم من كوني أجهل من هم أهلي، لكنني على يقين أن هذا الخاتم قد يرشدني إليهم يوما ما.
- أنت محقة يا (هيلين). سأذهب إلى غرفتي لأرتاح من عناء الطريق.

في طريقه إلى غرفته، حدث مارك نفسه قائلا: ما كان يجب أن أسألها عن الخاتم، قد تراودها الشكوك، يا لي من أحمق لم أستطع تمالك نفسي عندما رأيته!

اعترضت كاثرين طريقه: حمدا لله على سلامتك يا عزيزي، لقد اشتقت إليك، أهكذا تثير قلقي بمبيتك خارجا وقد أخبرتني بعودتك باكرا؟

- لقد كان الطقس ماطرا والطريق زلقة، ففضلت المبيت عند أحد الأصدقاء.
- قدرت هذا.
- اتبعيني أرجوك إلى غرفتي فأود محادثتك.

بدا الاهتمام عليها: تحت أمرك سيدي.

تحاشى النظر إلى عينيها وهو يقول: تعلمين أنه بعد ثمانية أيام سيكون موعد العملية القادمة، وقد قررت أنها ستتم حسب الخطة المتفق عليها، بنفس الزمان والمكان.

- والدخيلة؟
- ستبقى هنا، وسننجز العملية من دون علمها.
- أتريد افتضاح أمرنا؟
- لا تقلقي فلن تشعر بشيء.
- و... ولكن...
- قلت لك لا تخشي شيئا، فقد اتخذت قراري هذا بعد تفكير عميق.
- حسن يا مارك، أنت صاحب القرار هنا، ولكن اعلم أن أرواح من يعملون معك ليست لعبة في يدك تسيرها كيفما تشاء وحسبما تشتهي، فقط تذكر ذلك.
- أعلم ذلك جيدا يا كاثرين، أعلم ذلك.
- ما عدت أفهم شيئا.

في زاوية أخرى من زو ايا القصر حيث المطبخ، جلس بيتر وساندي حيث اعتادا الجلوس على كرسيين خشبيين، تفصلهما طاولة صغيرة مستديرة. بدأت ساندي حديثها قائلة: ألن تخبرني يا بيتر أين كنت البارحة؟

- قلت لك يا عزيزتي، لقد ذهب السيد مارك لزيارة أحد أصدقائه في المدينة وقد كنت معه، أفي ذلك شيء؟

- كلا، ولكن لماذا لم تخبرني أنك ستبيت خارج البيت؟ لقد كنت قلقة جدا ولم أنم من تخبط الأفكار التي اجتاحت مخيلتي وبالي مشغول عليك يا عزيزي.
- صدقيني يا ساندي، لم أكن أعلم أن سيدي ينوي المبيت خارج المنزل، فلقد سمعته يقول للسيدة كاثرين: إننا سنعود في نفس اليوم ولن نتأخر.
- ألا ترى يا عزيزي أن الأمور في هذا البيت قد أصبحت غامضة بعض الشيء؟
- ماذا تقصدين؟
- لا شيء معينا، ولكن وجود الآنسة (هيلين)، وسكوت السيدة كاثرين على وجودها رغم كرهها لها، و انعزال السيد مارك دوما وأشياء أخرى غيرها، ألا ترى أنها أمور باتت غريبة.
- هذا صحيح، ولكن ماذا بوسعنا أنا و أنت أن نفعل فليس باليد حيلة.
- وما شأننا نحن بمن يدخل أو يخرج ويحزن أو يفرح؟ كل ذلك سواء عندي.
- كيف؟ وعمليتنا؟
- عمليتنا!
- أ... أقصد عملنا أنا و أنت يا عزيزتي، أما يهمك هدوء المكان الذي تعملين فيه واستقراره؟
- بلى، لقد أصبحت لا أفهمك يا عزيزي، أرى في عينيك كلامًا غريبًا لا أعرف له معنى.

- هوني عليك يا عزيزتي، فأنا بيترلم أتغير، أنت مضطربة فقط، سأصنع لك كأسا من عصير الليمون، ما رأيك؟
- ما عدت أفهم شيئا!

كانت ساندي تعمل في القصر منذ أكثر من خمس سنوات، كان حبها لبيتر هو ما يجعلها سعيدةً مرتاحةً على الرغم من المعاملة القاسية التي تلقاها من السيدة كاثرين، كانت تشعرُ بأن هناك ما يحاك في ذلك القصر الكبير، اجتماعات مفاجئة، غياب أشخاص وظهور آخرين، شرود بيتر المتواصل وتهربه من الإجابة، انشغاله المفاجئ، كل ذلك أثار فضولها، لكنها كانت تقنع نفسها في كل مرة أن الأمر لا يهمها، فجل اهتمامها حبها لبيتروحب بيترلها.

ذكريات مريرة

كانت (هيلين) سعيدة بعملها على الرغم من بساطته وسهولته، فقد كانت تعمل وهي فخورة كونها تقوم بشيء ستأخذ عليه أجرا، ما كانت تحلُم بعمل ومكان مثل هذين ومع شخص مثل السيد مارك، لقد رأت في السيد مارك صورة الإنسان الكريم الحنون الذي تبرأ من مطامع الدنيا وشهواتها، فاتخذ من العفة والطهارة درعًا ومن الكرم والشجاعة سيفا، تساءلت: لو لم يكن السيد مارك قد انتشلها من الشوارع المتعفنة؛ ماذا كان سيكون مصيرها يا ترى؟ إنه الموت الأكيد وإلا مستقبل مجهول، لقد كانت صورة الفقر مرعبة مخيفة تلازم مخيلتها، لم تكن لتنسى محاولاتها العديدة للعيش بكرامة، فبمجرد أن ماتت العجوز التي عاشت معها حياتها، كان لا بد لها من البحث عن مصدر للعيش، كان أول ما فكرت به محل بيع الأقمشة الذي يقع في نهاية الحي الذي سكنت به، كان مالكه رجلًا جشعًا اشترط عليها العمل لساعات طوال بلا مقابل، غير أنه سمح لها بالمبيت في الدكان فافترشت أرضيته قانعة على أن يعطيها كسرة خبز لتكون قوت يومها. لم تعترض على ذلك بل كانت شاكرة حامدة، فاجتهدت بعملها كل اجتهاد إلا أن روح الرجل الشيطانية، دفعته لأن يدخل عليها في إحدى الليالي وقد أكثر من الشرب حتى فقد صوابه، تلصّص إلى الداخل والحي في سبات عميق وكذلك كانت (هيلين)، وجدها نائمة على الأرض بسلام، سوّلت له نفسه أن يمد يده إلى ما لا يملك.

فهلعت المسكينة وقاومته بكل ما أوتيت من قوة فراحت تركله هنا وهناك، وتغرس أظافرها في جلده المترهل حتى استطاعت الهرب من قبضته اللئيمة، ركضت نحو باب حريتها إلى الشارع الموحش لاهثة خائفة لا تدري أين تذهب. ابتعدت كثيرا وجالت شوارع عديدة.

حاولت العثور على عمل آخر إلا أن ذلك الوحش كان قد أشاع بين أقرانه أنها سارقة لا أمان لها، وأنه طردها بعدما اكتشف خيانتها في العمل، فما عاد أحد يرضى توظيفها. كانت بين خيارين لا ثالث لهما، إما أن تبيع جسدها لعشاق الأجساد الرخيصة فتحيا وتموت روحها، أو أن تتخذ من الشارع بيتًا ومن القمامة طعامًا فيموت جسدها وتحيا روحها طاهرة، فما كان منها إلا أن اصطفت مع المتسولين تستجدي الإحسان من قلوب لا تعرف الرحمة!

ستكون معنا!

الخامس من كانون الأول ١٨٦٦

إنه يوم الثلاثاء، كان صباحه عاصفًا وباردا، لم تهدأ الرياح المتجمدة منذ الليلة الماضية وقد أخذت تطرق على نوافذ القصر بشدة لتوقظ أهله من نومهم وتذكرهم أن الثلاثاء قد أقبل! نهض كل من في القصر؛ السيد مارك، السيدة كاثرين، (هيلين) والخدم، كل إلى عمله، لقد كان يومًا باردًا غائمًا كباقي الأيام بالنسبة لـ(هيلين) التي كانت ابتسامتها خير دفء لها.

كانت السيدة كاثرين كعادتها توجه الخدم في أعمالهم مستمتعة، فتأمر هذا وتنهى ذاك عندما ناداها السيد مارك قائلا: هلا سمحت لي؟

نظرت إليه وفي عينيها الإصرار ثم انحنت قليلا واتجهت نحو السيد مارك وقالت: بماذا يأمر سيدي؟

أجابها بصوت هادئ خالطه الحذر: اجمعي كل من يهمه الأمر ولتحضروا إلى القاعة الصغيرة، سأكون بانتظاركم.

- سمعا وطاعة سيدي.

تقدمت بإصرار بات ظاهرا في عينيها الثاقبتين، اقتربت من بيتر الذي كان ينظف العربة فهمست في أذنه بعدما تأكدت من عدم وجود آخرين، أن هيا إلى القاعة الصغيرة. فهم أن هناك اجتماعًا عاجلا، لم تكن تلك القاعة

تستخدم لغير ذلك، ترك ما بيده وأسرع لاستدعاء باقي الخدم وتوجهوا جميعا إلى حيث الاجتماع.

كان مارك و اقفا قرب النافذة عندما طرق الباب ودخلت كاثرين ثم تبعها بيتر والخدم الآخرون، أشار إليهم بالجلوس، ولما استقر الجميع بأماكنهم وساد السكون بينهم، قطع مارك حبل الصمت وقال: تعرفون لم التجمع اليوم، لقد بات موعد العملية قريبا وأعتقد أن كلا منكم مدرك تمامًا لما سنقدم عليه في الأيام القليلة القادمة، إني و اثق كل الثقة بإيمان كلِّ واحد فيكم بشرف رسالتنا، وأحقية قضيتنا ومستعد لبذل دمه في سبيل نجاحها، سكت للحظات ليتفحص قسمات وجوه السامعين، كانت آذانهم مصغية وقلوبهم مؤمنة وشفاههم عطشى للهتاف، لكنه هتافٌ دفينٌ محبوسٌ في الأعماق لا يجد للخروج سبيلا! تابع كلامه قائلا: أعتقد أن كل واحد فيكم قد حفظ دوره بأدق تفاصيله انطلاقا من ساعة الصفر وحتى آخر جزء من العملية.

ثم وجه كلامه إلى كاثرين التي بادلته النظرات وقالت: أمرك سيدي.

- تعرفين واجبك.
- كل المعرفة سيدي.
- و أنت يا بيتر.
- طوع أمر سيدي.
- و أنتم يا رجال؟
- على أهبة الاستعداد يا سيدي.

- هل يوجد عندكم أي استفسار؟
- هل لنا أن نعرف موعد العملية تحديدا سيدي؟
- إنه الإثنين القادم.

ساد السكون قليلا لكن مارك استدرك قائلا: انصرفوا الآن كل إلى عمله وكأن شيئا لم يكن. بالتوفيق.

طلب من كاثرين البقاء، اتجه نحوها وقد وضع يديه على كتفها وقال: عزيزتي، إن لم يكتب لنا النجاح فاعلمي رغم كل شيء أن لك مكانة كبيرة في قلبي.

اغرورقت عيناها بالدموع لكنها منعتهما من إنزال واحدة: سيكتب لنا النجاح، أنا و اثقة.

- أجل، ولكن إن حدث لي شيء فأوصيك خيرا بـ(هيلين).

ثار بركانها وهي تقول: لم كل هذا الاهتمام بدخيلة؟

كاد يبوح بسره لكنه آثر التريُّث قائلا: هذا رجاء يا كاثرين، أرجوك عديني فأنت أختي الكبرى التي اعتمد عليها!

وضعت يدها على فمه لتسكته: اخفض صوتك وإلا سمعك أحد!

- لم أعد أطيق هذا الحال!
- يكفي أننا نعرف الحقيقة.

أسر في نفسه أن ليتك يا كاثرين تعرفين كل الحقيقة، ليتني أستطيع مصارحتك بما يجول في قلبي!

- ماذا سنفعل بشأن (هيلين).
- لا شيء، ستكون نائمة في غرفتها عندما نبدأ تحركنا، سنخرج في ساعة متأخرة من الليل حيث يكون القصر قابعًا في نوم عميق، وهكذا لن يكون لوجودها ضرر.
- أرجو ذلك.

اسمعي يا كاثرين، إن فشلت عمليتنا فما عليك إلا أن تتوجهي إلى منزل صديقي جاك، فبيته آمن ولا تثار حوله الشبهات.

- ولكن ماذا أقول له؟
- لا شيء، قولي له: إن مارك بعثني إليك وحسب.
- حسنا، ولكن العملية ستنجح، أليس كذلك؟
- بلى يا عزيزتي، ستنجح.

كانت (هيلين) قد انتهت من فرز الرسائل فلم تجد ما تفعله، فهمت بمغادرة غرفة المكتبة لكن مارك كان قد حضر إليها: كيف كان يومك؟

- جيد جدا يا سيدي، لقد انتهيت من ترتيب الرسائل فهل هناك عمل آخر أقوم به؟
- لا يوجد الآن شيء، يمكنك الانصراف.
- شكرا سيدي.

همت بمغادرة الغرفة عندما سمعته يقول: انتظري لحظة يا (هيلين)!

أقبلت عليه: ماذا هناك يا سيدي؟

- سأذهب اليوم إلى المدينة وقد أتأخر بالعودة.

بدا الحزن على وجهها الدائري وهي تقول: حقا يا سيدي؟ أتمنى لك سفرا آمنا وأن ترجع بالسلامة.

وضع يده على كتفها وهو يقول: احرصي على سلامتك بغيابي يا عزيزتي.

احمر وجهها خجلا: سأفعل يا سيدي.

كان وجهه يحكي قصة أفكار تلاحقه، لكن الزمان والمكان يخنقانه فلا يستطيع البوح بها ليريح عاتقه من ذلك الحمل الثقيل، اكتفى بالنظر إليها علها تفهم من عينيه كلاما عجز لسانه عن الإفصاح عنه! قرأت في عينيه كلاما صعب عليها ترجمته لكنها لم تجرؤ على السؤال، كانت يده لا تزال على كتفها فوضعت يدها فوق يده وقالت بصوت حنون: ستسير الأمور على ما يرام يا سيدي.

استيقظ من أفكاره فشد يده متنبها وقد افتعل الانشغال بالرسائل الموضوعة على الطاولة فقالت: هل أنصرف يا سيدي؟

- يمكنك ذلك.

طرقت التساؤلات رأس (هيلين)، ماذا تعني نظراته تلك؟ لقد بدا حزينًا يائسًا يحمل هما ثقيلا، كانت عيناه ناطقتين حانيتين، أحست بدفء يديه على كتفها، هزّ كيانها ذلك الإحساس، كان حنانه جياشًا لم تجد له مثيلا في قاموس حياتها الفقير من المشاعر، كانت سائرة عبر الصالة الكبيرة وهي لا ترى أمامها سوى عينيه الحزينتين، عندما اعترضتها كاثرين بوجهها العبوس البارد قائلة: إلى أين؟

أحست (هيلين) أنها مسجونة وهذا القصر الكبير هو سجنها الذي يحلم به كل إنسان، وها هو السجان المخيف يستجوبها فأجابت كارهة: إلى غرفتي!

بدت كاثرين غارقة في بحر الأفكار هي الأخرى عندما سمعت صوت (هيلين)، ارتسمت على شفتيها اليابستين ابتسامة صفراء فقالت: هيا إذن. ثم ابتعدت مسرعة بعيدا عن (هيلين) التي استغربت من تصرفات كاثرين، ثم تذكرت نظرات مارك الغريبة أيضا وقالت في سرها: يبدو أن اليوم هو يوم الألغاز! ثم راحت تصعد السلم الطويل متجهة إلى غرفتها.

كانت كاثرين قد اتجهت نحو غرفة المكتبة وقد ملكها السرور، دخلت على مارك الذي تفاجأ بابتسامتها العريضة، التي لم يرَ مثيلا لها منذ زمن فلم يستطع منع نفسه من السؤال متعجبا: ماذا حدث؟

وضعت يدها على صدرها محاولة تهدئة دقاته المتسارعة وهي تهمس بأذنيه: وجدت حلا مرضيا لوجودها!

شعر بالرهبة من كلامها وقال بحذر: من؟

- الدخيلة، (هيلين).

كاد القلق يفقده صوابه فقال: ماذا؟ كيف؟

- اسمع، قد ندخلها في عمليتنا!

بدا الاستنكار في وجهه وصوته عندما قال: مستحيل!

- إن وجهها جديد على الساحة أي: لن يشك بها أحد، ستكون سببا في نجاحنا الأكيد، ثق بي يا أخي.

- لن أو افق على هذا الهراء، إنه الجنون بعينه! كيف نخاطر وندخلها معنا وهي لا تعرف من أمرنا وعملنا شيئا؟
- يا عزيزي سنوكل إليها عملا يسيرا باعتبارها تجربتها الأولى، كما إنه لا يزال متسع من الوقت لشرح الأمر لها.

لقد أدرك أن كلامها صحيح، فتوزيع مجموعة أوراق لا يحتاج إلا للحذر والإيمان بالقضية، لكن معارضته لم تكن بسبب ما أظهر من حجج وإنما كانت بسبب خوفه على (هيلين)، فيكفيها ما قاسته في حياتها منذ الصغر.

- ماذا قلت يا مارك؟
- افرضي أننا أطلعناها على سرنا فاستنكرته أو ربما خافت ورفضت، فنكون بذلك قد افتضحنا أمرنا سدى! فكري بالأمر يا كاثرين.

بدت حائرة وهي مشغولة بالتفكير فيما يقول، كان دافعها الأساسي من إقحام (هيلين) بالعملية هو التخلص من وجودها، كانت واثقة أن اشتراكها معهم كفيلٌ بإنهاء حياتها بوسيلة أو بأخرى، فقد كانت تعرف أشد المعرفة أن من يشترك في أمر مثل هذا عليه أن يكون صُلبا لا تثنيه الرياح، وهذا ما لم تكن تراه في تلك الفتاة الساذجة ذات الصوت الناعم. على الرغم من ذلك استطاعت كاثرين أن تلبس قناع الحكيم، الذي يقدم مصلحة الآخرين وسلامتهم قبل كل شيء.

قالت: عزيزي، إن هي خافت نستطيع تهدئتها، وإن هي رفضت نذكرها بصنيعك معها وكيف أنك انتشلتها من عالم التشرد الذي كانت تعيش فيه،

ولا أعتقد أنها سترفض بعد ذلك، وخصوصا إن خوفها من العودة إلى ذلك العالم ليفوق كل خوف!

- و... ولكن...
- إن بقيت على ترددك سيداهمنا الوقت.
- أمهليني بعض الوقت لأفكر بالأمر.
- لك ذلك. سأتركك الآن وسأعود بعد حين لمعرفة قرارك، ولكن اجعل مصلحة الجميع فوق كل المصالح.

مارك في سره: يا لك من امرأة سريا كاثرين! إلام تخططين الآن؟

ما الذي يدور حولي؟

انفردت ساندي كعادتها ببيتر في المطبخ بعد أن أقلقها غيابه، فراحت تستجوبه: ألن تخبرني أين كنت قبل قليل؟

- أ... كنت أنظف عربة السيد مارك!
- بحثت عنك هناك ولم أجدك!
- ناداني السيد مارك فلبيت نداءه!
- وماذا أراد منك؟
- لقد أخبرني أنه مسافر وطلب مني تجهيز العربة.
- إذن ستغيب الليلة، في أي ساعة سيسافر؟
- وما أدراني أنا يا ساندي؟ بالله عليك كفاك أسئلة!

ساد الحزن على وجهها وهي تقول بصوت منكسر: أهذا ذنبي لأني أحرص على سلامتك؟

- إنما أنا خادم يا عزيزتي يؤمر فيطيع!
- هل رأيت السيدة كاثرين اليوم؟
- لم أرها!

وضعت يدها على فمها لتخفي ضحكتها: لقد رأيتها اليوم قلقة عصبية المزاج أكثر من أي يوم آخر.

- وهل يفرحك هذا؟
- لأكن صادقة معك، نعم أفرح بشدة لذلك! فأنا لا أطيقها بل أكرهها أيضا! إنها تعاملنا كالكلاب وكأننا نعمل خدما عندها!
- ولم كانت قلقة وعصبية المزاج؟
- الأمر واضح يا عزيزي. همست في أذنيه متابعة: إنها تغار على السيد مارك من الآنسة الجميلة (هيلين)!

لم يمتلك منع نفسه من الضحك عاليًا وهو يقول في سره: مسكينة أنت يا ساندي، لا تدرين ما يدور حولك، إنها تظن أن السيدة كاثرين مغرمة بالسيد مارك، يا لسذاجتها!

دهشت من ضحكه فقالت: ولم الضحك الآن، هل قلت ما يضحكك؟

- لا شيء... لا شيء. سأذهب لأجهز العربة.
- لقد ضحك لأني سبقته إلى هذا الاستنتاج، لا بد أنني محقة!

امـرأة بـلا قلـب!

مضت نصف ساعة منذ أن دقت الساعة مشيرة إلى الثامنة صباحا، كان مارك ينظر إلى صورة العائلة المعلقة على الحائط، دخلت عليه كاثرين وقالت: عزيزي، هل فكرت فيما قلته لك؟

- كاثرين، أريد أن أسألك سؤالا عن هذه الصورة.
- اسأل ما عندك يا مارك.
- أين اختفت ابنة أبينا، أي ابنة سارة؟

فاجأها سؤاله وقد خطف لونها:أخبرتك حينها أنها ماتت بعد أمها بأيام!

التفت إليها وقد شزرها بعينيه وكأنه يقول لها: أنت كاذبة.

بدا القلق على وجهها لكنها قالت: ما الذي أتى بهذا السؤال على بالك؟ هذه هي المرة الثانية التي تسألني فيها عن سارة و ابنتها فما السبب؟

- كنت تكرهينها، أليس كذلك؟

نظرت إلى الصورة وقالت: أجل، كنت أمقتها وتمنيت موتها وفعلا كان ذلك.

- ولكن لماذا؟ لم كل هذا الكره؟ لم تفعل لك شيئا؟

جاء صوتها حاقدًا كارها: أنت لا تعرف شيئا يا عزيزي، كنت صغيرًا لا تدرك ما يدور حولك، أما أنا فقد كنت على علم بكل شيء، لقد تزوجت تلك

المرأة من أبينا طمعًا بثروته بعدما خدعته بلغة الحب الواهية، كان يكبرها سنا، وكان يملك من المال ما لا تحلم به امرأة فكيف بها وهي التي عاشت الفقروتذوقت الحرمان، لقد كان أبانا فريسةً سهلة بين أنيابها الطامعة، كان هدفها المال والثروة، لقد خططت لأن تستحوذ على الثروة لها ولابنتها وسعت لأن نحرم نحن منها، لم يمهلها الموت لتحقيق ما تصبو إليه حيث داهمها ليحول دون تحقيق مآربها الشيطانية، لكن القدر شاء أن تترك وراءها طفلة صغيرة لتقاسمنا تركة أبينا بلا حق، فقد كانت تلك الفتاة خلاصة زواج زائف بني على المتعة والطمع.

- حتى لو كان الطمع بالمال هدفها من الزواج لكنها كانت زوجة مطيعة له، لقد كان أبي سعيدا معها!

ابتسمت ابتسامة استهزاء وراحت تشير إلى صورة أبيها وهي تقول: كيف لا يسعد! لقد أنسته المتعة، ولديه الوحيدين!

- أمعقول هذا؟ أتكرهين والدنا يا كاثرين؟
- هذا لا يهم الآن.
- لكني أريد معرفة مصير الطفلة الصغيرة!
- حسنا، إن كنت تصر على ذلك! لم يكن أمر التخلص من فتاة في مهدها بالأمر الصعب، رفعتها من مهدها وهي مغطاة بغطائها الأبيض والابتسامة تعلو وجهها، كانت ليلة مقمرة وكأن القمرَ أراد أن يشهد ما أقوم به، وضعتها على باب بيت عجوز تسكن في إحدى الأحياء الفقيرة. أرأيت كم كان أمرًا يسيرا.

نظرت إلى وجهه الذي غدا منهارا تماما وتابعت: لست نادمة على شيء يا عزيزي فلا تبتئس!

صعق مما سمعته أذناه، راح ينظر إليها وكأنه يريد التأكد أبشر هذا الذي يتكلم أمامه؟! لقد بدت امرأة لكنها بلا شك من دون قلب، أنى لها فعل ذلك! رأى ابتسامتها الباردة تعلو وجهها الشاحب من العواطف وكأنها قد أتمت رو اية طرفة أو حادثة عابرة، لم يتمالك نفسه فرفع كفه ولطم وجهها ثم أشاح بوجهه عنها وقال: كيف فعلت هذا بأختك التي هي من لحمك ودمك؟ من أجل ماذا؟ سحقًا لك وللمال الذي يفرق بين الأخ وأخيه، سحقًا للمال الذي يجعل الطمع بصرنا والحقد يملأ قلوبنا والظلم طريقنا واللامبالاة عنو اننا!

لم تحرك ساكنًا وكأن شيئا لم يكن لكنها أضافت: يا لك من رجل طائش، لن تنفعك هذه الشعارات الرنانة التي لا تسير بصاحبها إلا إلى الهلاك.

استعاد بعض هدوئه وقد جلس على كرسيه، بدا منهمكا بالتفكير وقد حلق بعيدا هاربا من الحقيقة بعدما أثقلته الهموم.

- حسن، في الو اقع أنا نادمة على أمرواحد لا أنفك ألوم نفسي عليه!

كانت تلك العبارة كفيلة بإمداده بشيء من الأمل فاستقرت روحه قليلا وهو ينظر إلى عينيها مستزيدا منها، تابعت قائلة: كم كنت طائشة حينها عندما دسست في مهدها خاتمًا ذهبيا، كان الخاتم لأمها، لا أعلم ما الذي كنت أفكر فيه لحظتها؟ كم أرقتني ذكرى ذلك الخاتم! لطالما تصورت نفسي فزعة و أنا أشاهد إحداهن تضع ذلك الخاتم في إصبعها، كم من القلق سيسبب لي

ذلك! لكن ما يطمئنني أنه دليل لا يعرف معناه سواي، فإن رآه أحد ظنه مجرد خاتم جميل، لكني أعرفه جيدا، أهداه أبي لأمها ليلة زفافهما المشؤومة، لن أنساه أبدا.

وضع يديه على رأسه وكأنه يريد تثبيته بعدما أوشك على الانفجار وقال في سره: يا ويلتاه، إنها هي! الان تأكدت أن (هيلين) أختي، يا لمصيبتي!

قطعت الصمت بصوتها الحاد: ما علينا الآن، يكفينا هدرا للوقت، ماذا قلت بشأن (هيلين)؟

نظر إليها وقد كفكف دموعه وقال: سأناديها وأخبرها.

أسعدها قراره فقالت: سأناديها حالا.

قام إلى النافذة مترنحًا ولسان حاله يقول: من الأفضل لـ(هيلين) أن تكون معي أينما ذهبت، فما عدت آمن عليها إن بقيت وحيدة، أرجو أن يكون قراري صائبا، ثم نظر إلى السماء فوجد الغيوم قد تشابكت وكأنها اتحدت ضد الشمس الخافتة!

توجهت كاثرين مسرعة إلى غرفة (هيلين) حيث دخلت عليها و ابتسامتها الباردة على وجهها، أشبه بوردة في فصل الشتاء الذي أفقدها رونقها بعدما نزع عنها بتلاتها.

- إن السيد مارك يريد مكالمتك فورا.
- هل هناك شيء يا سيدتي؟

استبدلت ابتسامتها بعبوس: انزلي وحسب!

تسرب القلق إلى نفس (هيلين) وهي تقول: حسن يا سيدتي.

عندما ينطق القلب

نزلت (هيلين) السلم الطويل، شعرت أن هناك شيئًا غريبًا يحدث، تذكرت نظرات السيد مارك الحزينة، و ابتسامة كاثرين المخيفة، فزادها ذلك قلقا، كان خوفًا من مستقبل مجهول وقد اعتادت العيش الرغيد، كان شبح الماضي يطاردها فيضيق عليها أفكارها ويجهض أحلامها. استأذنت ودخلت غرفة المكتبة، كان مارك مستغرقا بالنظر إلى صورة العائلة والحزن مخيم على وجهه فقال: أنظري يا (هيلين)، هذه زوجة أبي و ابنتها، أليستا جميلتين؟

استغربت من كلامه لكنها قالت: بلى يا سيدي، إنهما جميلتان حقا.

مارك: لكن الموت خطفهما. قال ذلك وقد ضرب بقبضة يده على الطاولة، أجفلتها تلك الضربة حتى كاد قلبها ينفجر من سرعة نبضاته وكأنه قلب عداء يريد الوصول إلى خط النهاية البعيد!

نظر إليها وقد رسم ابتسامة حنونة على وجهه وقال: اجلسي يا (هيلين).

جلست أمامه والحيرة بادية على وجهها، راحت تحدث سرها: أقسم إن هناك أمرا خطيرا، استرجعت وجه كاثرين بابتسامتها وعبوسها الباردين، فعاودها الخوف الذي يسري بين العظام فيحدث رعشة فيها.

- عزيزتي، هلا أعرتني الخاتم قليلا؟

استغربت من سؤاله، لقد أظهر اهتمامه بالخاتم مذ رآه أول مرة، لطالما أدخل ذلك الريبة إلى قلبها، لكنها لم تملك أمام رغبة سيدها سوى الإجابة،

فأخرجت الخاتم من جيبها فسقطت عليه أشعة الشمس ليلمع ويعكس تلك الأشعة على عيني مارك، الذي قلب الخاتم بين يديه وقد استحضر حواره مع كاثرين قبل قليل، امتلكته رغبة جامحة بتقبيل الخاتم لكنه آثر الحفاظ على هدوئه أمامها، أعاد الخاتم إليها وقال لها بصوت هادئ دافئ: احتفظي به، وأرجوك ألا تدعي أحدا يراه وخصوصا السيدة كاثرين، فهي لا تحب الحلي البراقة!

بدت علامات الدهشة واضحة على قسمات وجهها، ما الذي يعنيه كلامه هذا؟ ولم السيدة كاثرين بالذات؟ ما قصة الحلي البراقة تلك؟ بدت الأمور أكثر تعقيدا أمامها، شعرت بحيرة أجبرتها على السؤال: سيدي، أتخشى السيدة كاثرين؟

سألت سؤالها وقد احمر وجهها خوفًا وخجلا، هربت بنظراتها إلى الأرض، بأي حق تسأل سؤالا كهذا؟ ومن هي حتى تسأل؟ توقعت توبيخًا أو ربما طردًا لكنها فوجئت عندما سمعته يقول بصوت حزين: أجل أخافها! لقد بدا كطير مكسور الجناحين ينزف دما ولا يجد من يغيثه، ساد الصمت قليلا لكنه قال: هل تؤمنين بالحرية والسيادة والعدل والمساواة؟

التقت عيناهما فكانت (هيلين) كالفتاة العطشى التي وجدت الماء في صحراء قاحلة: سيدي، الحرية ملكة تاجها السيادة ومملكتها العدل وشعارها المساواة ونبذ الفرقة، فإن وجدت الحرية لحقتها بالضرورة السيادة ولا يملكهما إلا صاحب القلب الذي لا يعرف الظلم وهنا يتحقق العدل وبالعدل لا وجود للفرقة، فلم الفرقة والناس سواسية؟

سيدي، إنما الحرية والعدل والسيادة والمساواة هي ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات، هي من تكرم الإنسان وتجعله سيدًا على هذه الأرض، فإن اختلت هذه القيم او تزعزعت، فقد الإنسان كرامته وتساوى بذلك مع غيره من المخلوقات أو لربما كانت درجته أدنى منها لأنه يكون بذلك قد سخف من قيمة العقل الذي منح له دون غيره!

أخذت تتكلم وتسهب بحديثها، وكأنها أستاذٌ أو فيلسوفٌ حصلت على شهادة من أرقى الجامعات، كان الحماس يتطاير من عينيها وكأن سؤاله النار التي أشعلت الفتيل الملتهب! لم تكن مجرد كلمات رنانة تلك التي راحت تتدفق من فمها، بل كانت بلسما تحاول فيه تطبيب جراحات ولدتها ثمانية عشر عاما من الظلم والحرمان!

راحت تقول: لا يعرف معنى الحرية إلا من عاش حياة الذل والعبودية، فالعبودية لا تعني بالضرورة أن يتملكك شخص ويتحكم بحياتك، فالمعنى أكبر من ذلك بكثير! أنت تكون عبدًا عندما لا تملك اتخاذ خياراتك بما يزنه عقلك وتمليه عليك جوارحك، تكون عبدًا عندما يتوجب عليك التصفيق لمن تتمنى أن تغرس أصابعك في أعناقهم، تكون عبدًا عندما ترضى أن تستغل في سبيل مآرب وغايات لا تخدم غير أصحابها!

ستكون شجاعًا إن أنت رفضت العبودية ورحتَ تحلق في السماء الواسعة باحثًا عن الحرية وأنت تحلم بأبوابها الواسعة تفتح أمامك لتضمك وتحنو عليك، لكن الأمر ليس بهذه السهولة! فعليك أن تواجه الجوارح التي تحلق هي الأخرى في تلك السماء، فلا بدّ للأحلام أن تصطدم

بجدار الو اقع البغيض عندما تدرك أن الحرية مسجونة هي الأخرى بسلاسل التفرقة بعدما حكم على المساواة بالإعدام في أرض يتميز فيها البشر في طبقات وفئات فتجبر بعد كل ذاك أن تطأطئ رأسك لترضى بو اقع أليم علقم وإلا فعليك أن تشهر سلاحك أمام زماننا الذي لم يزل يسخر من بشريتنا!

لقد ترعرعت بين أحضان الفقر الباردة، أدركت معنى الجوع والحرمان منذ نعومة أظفاري، كنت أعلم أنني لست الوحيدة في هذا العالم ممن يعانون ويقاسون وربما كنت أفضل حال من أولئك الذين يعانون الأمرين، الجوع والمرض! آه كم تأسفت لحالهم و أنا أسمع آهاتهم وأرى تعاستهم في عيون كلَّت من هذه الدنيا!

كم غريب على الإنسان عندما يتنازل عن إنسانيته؛ ليكون أشرس من الوحوش الضارية والتي على الرغم من قساوتها، قد نتفاجأ بوجود شيء من الرحمة الفطرية في قلوبها! ماذا تسمي أناسا أتخمتهم النعمة حتى فاضت عن حاجتهم فإن أنت استعطفتهم زجروك ورموك بالشتائم وربما الضرب أيضا، وفضلوا رمي ما زاد عن حاجتهم من طعام يحلم به التعساء ليسد رمقهم، كأنهم يتلذذون وهم ينظرون إلى المتشردين يبحثون في القمامة عن بقايا الطعام المتناثرة، كم أعجبهم مشهد المنافسة بين الكلاب والقطط وأولئك التعساء المتهالكين؟ ما أقسى قلوبهم وما أبعدها عن الإنسانية!

نظر إليها مارك وهي تتحدث عن كل ذلك بعينين بر اقتين ملؤهما الفخر والاعتزاز، لم يكن يصدق أن هذه التي تجلس أمامه، هي اللقيطة التي وجدها مرماة في ساحة المدينة تستجدي الشفقة والإحسان!

أصغى إليها بكل جوارحه حتى انتهت من كلامها، لم تستطع منع الدموع من التسلل من مقلتيها، فاستدرك قائلا: وما رأيك بأولئك الذين يحاولون رفع تلك الشعارات عاليًا بين الناس محاربين من يحاول طمرها في التراب؟ أقطاع طرق هم أم مشاغبون كما يشاع عنهم؟

أجابت بصوتها الحماسي قائلة: سيدي، إنهم كفراشات بريئة صادقة تحاول الطيران والتحليق بأجنحتها حاملة معها هذه الشعارات، أما من يحاول طمرها فهو كالعنكبوت السام الذي يغزل بيته ليصطاد به هذه الفراشات المرفرفة، فما علينا نحن إلا أن نؤيد هؤلاء الأشخاص وندعمهم نحو الأمام فهم الشعلة الوضاءة التي يستنير الناس بها في درب الجهل والظلام ليستمدوا منها الأمل ولو كان بعيدا صعبا.

نظر إليها وقد ارتوت نفسه بكلماتها التي تشفي الغليل وقال: فما رأيك أن تكوني فراشة من تلكم الفراشات، تطيرين وأنت حاملة هذه الشعارات والحذر سلاحك كي لا تقعي في شباك العنكبوت الفتاكة؟

ارتسمت على وجهها بشائر الفرح والدهشة معا، غاصت في بحر عينيه تريد تفسيرًا فقال: أنا وبعض أهل هذا البيت قد نذرنا أنفسنا لتحقيق هذه الغاية النبيلة ولا بد لصوت الحق أن يعلو يوما، فلا بد للربيع أن يأتي بعد طول الشتاء فيحمل معه أملا جديدًا بحياة جديدة ومستقبل جديد.

ساد السكون ثانيةً بينما كانت العيون ناطقة، كانت لغة الأمل والحماس، ترددت تلك العبارات في قلبها وروحها، شعرت بتغير الهواء الذي تتنفس، لقد غدا نقيًّا عذبًا ليمتزج بنكهة الأمل والإيمان.

(هيلين): اعلم يا سيدي أني أنذر نفسي مع الناذرين، سأحمل شعار الأمل عاليًا أو أهلك دون ذلك. ترقرقت عيناها الجميلتان بدموع حارة كانت أشبه باللؤلؤ المتناثر فزادتها العبرات جمالا فوق جمالها.

كانت كلماتها صادقة لامست قلب مارك وروحه الطيبة، شدّ على يديها وقد كاد يبوح بسره لها: إذن اعلمي يا عزيزتي أنك نذرت نفسك لغاية هي أشبه بالانتحار لكنه انتحار شريف من أجل حياة أفضل.

غمرت العبرات صوتها وهي تقول: واعلم يا سيدي أنني أقود نفسي طواعية لهذا الانتحار و إنه لشرف عظيم لي.

كفكفت دموعها قائلة: هلا حدثتني يا سيدي عن بعض التفاصيل؟

مسح جبينه بمنديله الأبيض واستعاد هدوءه وقال: أجل، عملنا يقوم أساسا على التسلح بالقوة والشجاعة مع الحذر الشديد، فهذا شرط النجاح خصوصًا أن موعد العملية القادمة بعد أسبوع!

حافظت على هدوئها على الرغم من اندهاشها وقالت: بعد أسبوع!

أجل، إن كنت غير مستعدة فيمكننا... لم تترك له المجال ليتم عبارته فقاطعته بكل تصميم قائلة: أنا على أهبة الاستعداد يا سيدي!

- حسنا إذن، عندما يحين موعد العملية سنغادر أنا و أنت و... ثم أخذ يشرح لها الخطة المتفق عليها وهي تستمع إليه بأذنين قد تلهفتا لمثل هذا الحديث، كيف لا وهي التي علمتها الأيام دروسًا قاسية مما جعلها مستعدة للنضال في سبيل إنقاذ أطفال كثر من مستقبل مظلم!

أصغت للخطة حتى حفظتها بحذافيرها ولما أكمل مارك كلامه هزت رأسها بالموافقة الأكيدة لكنها قالت بصوت متردد: هل أجرؤ على السؤال يا سيدي؟

- بالطبع يا (هيلين)، اسألي ما شأت!
- من الذين سيكونون معنا في العملية؟
- هم كثر، من هذا البيت كاثرين وبيتروخمسة رجال من الخدم.
- ستكون السيدة كاثرين معنا!

ابتسم ابتسامة أسى وقال: أجل، هل يفاجئك هذا؟

- عذرا يا سيدي، لقد تصورت أن السيدة كاثرين لا تؤمن بمثل هذه القضايا!
- بالفعل هي لا تؤمن بها لكنها وببساطة نذرت نفسها لما نذرت نفسي إليه!
- بخجل خالطته الغيرة قالت: ألهذا القدر تحبك؟
- كاثرين لا تحب غير نفسها، تأكدي من ذلك، لكنها أحيانا تتصرف بغرابة كعملها معنا مثلا لتثبت لنفسها وللآخرين شجاعتها وقدرتها على الإقدام!
- إنه انطباعي عنها أيضا!
- هل تكرهينها يا (هيلين)؟
- أنا لا أكره أحدا. أنا أخافها فقط.

قال في سره: يا لقلبها الأبيض، لك الحق أن تخافيها وأن تكرهيها، فهي سبب شقائك!

ويعمل معنا أيضا أشخاص من خارج القصر لا تعرفينهم، ستتعرفين عليهم لاحقا. كدت أنسى، سأذهب اليوم إلى المدينة، أتودين مرافقتي؟

- هذا من دواعي سروري يا سيدي.

ظل مارك وحيدا في الغرفة بعد انصراف (هيلين)، أحس بارتياح شديد، تناول ورقة بيضاء وكتب عليها بعض عبارات ثم طواها ووضعها في ظرف صغير ختمه بالشمع وقال: أتمنى ألا يتحقق ذلك يا كاثرين، أرجو ذلك!

سارت (هيلين) نحو غرفتها، وجدت السلم قصيرًا جدا، كانت سعادتها وحماسها يدفعانها للانطلاق بسرعة، وصلتْ غرفتها وهي تفكرُ في كل ما سمعته، هل كان ذلك حلما، لا لم يكن كذلك! نظرتْ في المرآة وابتسامة السرور مرسومة على وجهها المشرق، أصابها قلق مفاجئ، تساءلت إن كانت قادرة على تحمل مثل هذه المسؤولية؟ لكنها استعادت ابتسامتها وهي تردد: أنا أثق بالسيد مارك، كما إن عدالة القضية وإيماني بها يهبانني القوة والطاقة على تحمل المسؤولية، هو انتحار بحق ولكنه انتحار شريف من أجل غاية عظيمة.

أتكرهينها؟

أقبلت كاثرين حيث كان مارك جالسا، رأته شارد الذهن ومسحة الحزن ترتسم على محياه متأملا صورة العائلة وكأنها فصل الخريف ارتسم على لوحة فنية، لم يؤثر ذلك في قلبها ولم يكن ليحرك مشاعرها التي طمرتْ مع الأيام في بحر السنين.

سعلت سعلةً مفتعلةً أثارت بها انتباهه فالتفت نحوها وقال بصوت حزين: كلمتها ووجدتها متحمسة للفكرة وقد و افقت بسرور على الاشتراك معنا، إنها حقا فتاة شجاعة!

لم يعجبها إطراؤه فقالت: حقا إنها شجاعة! ولكن ألا ترى أن اندفاعها هذا مثير للريبة؟

ضاق ذرعه بها: كفي الآن يا كاثرين، كفاك تشكيكا! أما يرضيك أنها و افقت وكفى؟

- ولم اندفاعها وتحمسها هذا؟
- أنت لا تفهمين! كيف لك أن تفهميها وقناع الحقد قد غلف وجهك وقلبك، ماذا تتوقعين من فتاة عاشت الجوع والحرمان طوال حياتها؟ ماذا تتوقعين من فتاة لا تملك غير ابتسامتها الحزينة ولا تجد ما تخاف عليه؟ لا تملك بيتا يأويها ولا أهلا يحنون عليها ولا لقمة تسكت بها أنين معدتها، فلم لا تقبل بعد كل هذا على العملية باندفاع وحماس؟

لم تتأثر بكلامه مطلقا بل اكتفت بالقول: ربما كان ما قلته صحيحا ولكن لا بد من الحذر.

- لا تخشي شيئا يا كاثرين، ستكون حياتك بأمان، كوني على ثقة من ذلك.
- أرجو ذلك.

حدق كل منهما بالأفق وكأنهما يستنطقان المستقبل المجهول ثم قالت: هل أعجبت بها؟ صارحني.

ملأت الدهشة عينه: من؟

غمزت بطرف عينها: من غيرها؟، (هيلين)!

قال مستنكرا: كفاك جنونا! لم أفكر بها قط كما تعتقدين، فأنا أعتبرها... كأخت لي!

غضبت وقالت: كأختك! ويحك يا مارك أتساويني بلقيطة قذرة؟

كتم في سره غضبًا دفينا، كان يعتقد أنه لا تجوز المساواة بين فتاة صافية القلب مثل (هيلين) وامرأة حاقدة مثل كاثرين!

يخيل لي يا كاثرين أنك تكرهين الناس قاطبة بل وتحقدين عليهم، أما أحببت أحدا يوما؟

ربّتت على كتفه وقالت: دعنا من هذا الحديث يا عزيزي ويكفي أنني لا أعمد إلى إيذاء الذين أكرههم.

انتابه الخوف وهو ينظر في عينيها الحاقدتين، لم يكن خائفًا على نفسه، لقد كان جل قلقه على أخته الصغيرة، أدرك أنه من الأسلم لها أن يبعدها عن

كاثرين قدر المستطاع، كان قادرًا على استشعار الخطر، فالحقد يملأ قلبها ويعمي بصرها فهي تعيش في ظلامٍ دائمٍ اسمه كره الحياة والأحياء وربما الأموات أيضا!

خرج إلى الإسطبل فوجد بيتر وقد انتهى من تجهيز العربة فقال له: أنت رجل وفي ونشط يا بيتر وتستحق كل تقدير.

- شكرا لك يا سيدي واعتز بشهادتك هذه، يكفيني شرفا أنني أعمل على خدمتك يا سيدي.
- قررت الذهاب إلى المدينة هذا المساء لأمر طارئ.
- متى تود المغادرة يا سيدي؟
- بعد حوالي نصف ساعة، سأصطحب الآنسة (هيلين) معي هذه المرة.
- أنا والعربة تحت أمرك سيدي.
- شكرا لك.

تردد الشك إلى قلب بيتر، بدا الأمر غريبا، أدرك أنه لا بد من إطلاع السيدة كاثرين عليه، فما سر اصطحاب الآنسة (هيلين)؟ وما هو الأمر الطارئ؟ كان غارقا بالتفكير عندما دخلت عليه ساندي وهو منشغل عنها ففاجأته قائلة: ماذا أراد منك السيد مارك؟

ذهل وقال: كان يؤكد على ذهابه إلى المدينة. منذ متى وأنت هنا؟ حالك كحال المحقق لا يكف عن طرح الأسئلة! إلى أين؟ من أين أتيت؟ ماذا تفعل؟ لقد مللت هذا! سأخرج من هنا.

- انتظر إلى أين تذهب؟

ضاق بها ذرعا: أترين؟ ما زلت تسألين!

انتابتها نوبة بكاء، ولسان حالها يقول: ما باله قد تغير، أصبحت لا أفهم تصرفاته! لا بد أن لتلك الحَيْزَبون يدًا في ذلك، أكاد أجزم فهي تكرهني.

****

كانت كاثرين جالسة في غرفتها أمام المرآة تسترجع الحوار الذي دار بينها وبين مارك صباح اليوم، أزعجها غموض مارك في أقواله و أفعاله، لم تعد تفهمه جيدا، كان يبدي لها الحب والعطف حينًا والزجر والتعنيف أحيانًا أخرى، كانت تعلم أنه يهابها فهو لم يعصِ لها أمرًا يومًا ما، لكن حاله قد تغير هذه الأيام، منذ قدوم تلك الدخيلة، شعرت أن أفكارها تتلاطم من غير توجيه دقيق، انتبهت إلى صوت الباب يطرق ليدخل بيتر، الخادم الأمين، كانت عيناه لا تفارقان الأرض وهو يقول: سيدتي، أردت إعلامك أمرا!

- ماذا يا بيتر؟
- سيغادر السيد مارك بعد قليل إلى المدينة وسيصحب الآنسة (هيلين) معه!

حاولت ألا تظهر له اهتمامها بالأمر وكأنه لا يعنيها فقالت: وماذا في ذلك؟ لعلك لا تعلم يا بيتر أن (هيلين) قد انضمت إلينا، لقد أصبحت شريكة لنا بالعملية!

عقدت الدهشة لسانه وهو يحاول فهم ما سمع: أكاد لا أصدق ما أسمع!

- أعلم أن الأمر يبدو غريبا، بدا لنا في ذلك منفعة للجميع، فوجهها جديد لا يعرفه أحد مما يبعد الشكوك عنا. لا تقلق، إن هي أخطأت التصرف فلن أتردد في ردعها.

لم يجبها بل ظل محافظًا على صمته بينما كانت عيناه لا تزالان متجهتين نحو الأرض فتابعت: أريدك أن تكون يقظًا يا بيتر، أريد أن أعلم إلى أي الأماكن في المدينة سيذهب السيد مارك؟ وأن تحفظ كل ما يجري معهما، هل هذا واضح؟

- أجل سيدتي.

قالت في سرها: ويحك يا مارك، أتجرؤ على الخروج معها إلى المدينة؟ وفوق كل ذلك تتظاهر بأنك غير معجب بها! سألقن كلا منكما درسا، أنا لا أسمح بأن يستهزأ بي أبدا، فأنا صاحبة القصر الحقيقية، إياك يا مارك وغضبي عليك، فإن غضبي لا حدود له!

ثلـوج دافئـة

استعدت (هيلين) للذهاب مع السيد مارك إلى المدينة والفرح يغمرها، كانت تلك المرة الأولى التي تغادر فيها القصر منذ قدومها إليه، ارتدت معطفها و اتجهت إلى الباب، فتحته وإذا بمارك يقف وراءه، احمرَّ وجهها خجلا فقال: لقد كنت على وشك أن أطرق الباب لكنك سبقتني إليه!

- تفضل يا سيدي بالدخول.
- لا وقت لدينا، هل أنت مستعدة للذهاب؟
- نعم يا سيدي.

نزلا السلم معا، لم تعهد السلم بهذا الجمال من قبل! أحست وكأنها أميرة تسير بصحبة أميرها، أعجبها ذلك الشعور، ودت لو تمسك بيديه لكنها خجلت من أفكارها فاكتفت بالابتسام وهي سائرةٌ حتى وصلا إلى الحديقة، كانت العربة بانتظارهما، صعداها ثم صهلت الخيل وراحت العجلات تتسارع تدريجيًا، في دورانها على الطريق المغطى بالثلوج، كان الطريق هادئا، كل شيء فيه أبيض، الشارع والأشجار والسياج التي وضعت هنا أو هناك على جنبات الطريق لتفصل بين الحقول المتجمدة.

كانت تنظر إلى كل ذلك الثلج، لم تتمالك نفسها فسقطت الدموع على خديها وكأنها حباتُ ثلج متأنقة، رقّ قلبه وهو يراها باكية حزينة فسألها بصوت حنون دافئ: ما الأمر يا عزيزتي؟

مسحت دموعها: أنا آسفة يا سيدي، لكنها المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بدفء الثلج على الرغم من برودته! إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالأمان في هذا العالم الواسع الذي يفتقر إلى الأمان!

عصر الحزن قلبه وكأنه المذنب الذي حرمها من هذا الشعور طوال تلك السنوات، لكنه شد على يديها وقال: سير افقك شعور الطمأنينة ما دمت إلى جانبك، لن أدعك وحيدة أبدا، أعدك بذلك يا عزيزتي.

شعرت بعطفِ يديه يظللها فينسيها ما آسته سابقا، تمنتْ لو يبقيهما متشابكتين بيديها، التقت عيناها بعينيه فذابت آلامها فيهما، كم أرادت أن ترمي بؤسها على كتفه وتتكئ على ذراعيه لتفتح صفحة جديدة من صفحات الأقدار، علّها تكون صفحةً خاليةً من الألم والحرمان، أغمضتْ عينيها، أحست أنها تعيش حُلمًا ورديًّا بات الثلج فيه دافئا! سحب يده بسرعة وتلعثمت نظراته وقد أربكه ما قد تحمله نظراتها من مشاعر، خشي على قلب أخته من أن يطرق بابًا خاطئًا لا مفتاح له فيجرحها جرحًا عميقًا لا يقوى على رؤيته! أشاح بوجهه عنها وراح يصطنع الانشغال بمنظر الثلوج، أحست بجفائه فآلمها ذلك، استوت معتدلة على مقعدها بينما مدتْ هي الأخرى نظرها من خلال النافذة المجاورة لها، بينما وضعت يدها التي تشابكت مع يده على قلبها وكأنها تريد إنعاشه!

استمرت عجلات العربة بالدوران من دون ملل حتى دخلت أجواء المدينة التي بدت لـ(هيلين) كئيبة قاتمة على الرغم من الأنوار التي ازدحمت بها سماؤها، فخلف تلك الشوارع المزينة والضحكات المتعالية أكوام من

المتشردين الجائعين الذين لم تكن لتنساهم وقد كانت قبل عهد قريب واحدة منهم. لقد كانت المدينة أشبه بصفحات كتاب امتلأت بأسماء أولئك المخلفين حتى نفدت تلكم الصفحات دونهم.

كانت العربة تسير ببطء في تلك الشوارع المزدحمة بينما سمعت (هيلين) طرقًا على نافذتها، أطلت لترى صاحبة ذلك الطرق المتهالك، رأت يدين طغى سواد الأيام على بياضهما ممتدتين لها تطلب ما يسد به جوعها، نزف قلبها جراحات عندما ترددت على مسامعها عبارات الاسترحام، لم تتمالك نفسها، توقفت العربة فهرعت مسرعةً إلى تلك المسكينة التي كانت تستقبل الهواء البارد بثياب مهترئة رقعت مرارًا وتكرارا، تجمدت (هيلين) محدقة في الفتاة، تقابلت نظراتهما والفتاة في حيرة من أمرها، لم تتردد (هيلين) فنفضت المعطف عنها وألقته على كتف المسكينة التي دهشت لما يحدث، ثم قالت: هذا كل ما أملك يا عزيزتي، لا تيأسي، أنت في حرب مع الأيام فلا تستسلمي، ستشرق شمسك في يوم ما.

عادت إلى العربة حيث كان مارك جالسًا يتابع ما يدور من دون أن يتدخل، لم تقل شيئًا فهمس قائلا: عزيزتي! انفجرت بالبكاء الحارق، كانت دموعها صادقة جدا، أدرك معناها فلم يحاول إسكاتها بل أرادها أن تنفس عما بداخلها من شقاء. لقد رأتْ في تلك المسكينة حالها الذي كانت عليه، كانت تعلم أن تلك المسكينة إنما هي واحدة من مئات يشكون البرد والجوع في هذه اللحظة وفي كل لحظة، أحست بالعجز والمسؤولية تجاههم.

نظرت إليه بعينيها اللتين أشعلتهما الدموع وكأنها تطلب النصح فجاء صوته بلسمًا لجراحها: من أجلهم نذرنا أنفسنا، ولأجلهم سنظل نقاوم حتى الرمق الأخير!

ارتسمت على وجهها ابتسامة الأمل، كان أملًا بمستقبل مشرق، أغمضت عينيها وراحت تتخيل المدينة وقد تغيرت أحوالها، لا تجد فيها فقيرًا أو مشردًا فالكل سواسية يعملون بكرامة، يتلذذون بحبات العرق التي يكسبون منها العيش الكريم، مدينة لا تجد في قمامتها أناسًا يبحثون عن بقايا الطعام، ولا تجد فتيات يبعن أجسادهن خوفًا من التشرد، لا تجد فيها من يتصور أنه يمتلك شراء الأرواح وبيعها بالمال وكأن تلك الأرواح بضاعة لها سوق عنوانه الشوارع، تشترى منه! راحت تحلُم بمدينة يعيش فيها البشر كبشر!

توقفت العربة أمام منزل السيد جاك حيث ترجل مارك و(هيلين)، قرع الباب فأطلت الزوجة المخلصة ميري بابتسامتها الفاتنة مرحبة بالزائرين فقال مارك: أقدم لك سكرتيرتي (هيلين).

- أهلا بك يا عزيزتي، لقد ظفرت يا مارك بسكرتيرة رائعة الجمال.

احمر وجه (هيلين) خجلا وكذلك مارك، دعتهما للدخول وهي تقول: لقد توقع جاك قدومك هذا اليوم!

- حقا؟ و أين هو الآن؟
- أقبل جاك وهو يقول: أهلا بالضيفين.
- هذه هي (هيلين) التي أخبرتك عنها.

- لقد حدثني مارك عنك كثيرا لكنه لم يخبرني أنك بهذا الجمال.

احمر وجهها ثانية ولم تملك غير الابتسام، جلس الجميع عند المدفأة، قامت ميري وتبعتها (هيلين) لإعداد الشاي الساخن، أخرج مارك ظرفًا وناوله لصديقه وهو يهمس في أذنه: إن في هذا الظرف رسالة كتبتها ويهمني أن تقرأها كاثرين في حال موتي، لم أجد صديقًا وفيًّا أثق به غيرك لأودعها عنده، أرجو أن تسلمها لكاثرين في حال أصابني مكروه.

- على رَسْلِك يا رجل، لم كل هذا التشاؤم؟
- لا يوجد هناك متسع للحديث يا صديقي، لكن باختصار شديد، لقد تأكدت من الأمريا جاك، (هيلين) أختي بالفعل!
- هل أنت متأكد فعلا؟
- استنطقت كاثرين وقصت لي ظروف موت زوجة أبينا، وكيف أنها ألقت بابنتها أمام أحد البيوت الفقيرة وقد أبقت معها خاتما، إنه نفس الخاتم الذي مع (هيلين)!
- ما أقسى قلبك يا كاثرين!
- هذا ليس كل شيء!
- وماذا بعد؟
- أعتقد أن (هيلين) مغرمة بي!
- هذا منطقي جدا، لم لا تغرم بمن بادلها حنانًا وعطفًا إضافة إلى ذلك هو أعزب وشاب ووسيم!
- كيف أتصرف الآن؟ أرى أن الأمور سائرة إلى التعقيد شيئا فشيئا!

- صارحها بالأمر.
- أخشى أن يفتضح سري أمام كاثرين، لن يستوقفها أمر، قد يجن جنونها إن هي علمت الحقيقة، لذلك لا أحبذ فكرة إخبار (هيلين) في هذه الآونة على الأقل.
- وكيف ستتصرف مع (هيلين)؟
- أنا في حيرة من أمري.

أقبلت ميري و(هيلين) تحملان الشاي، جلست (هيلين) إلى جوار مارك بعد أن ناولت كلا منهما فنجان شاي بينما ذهبت ميري لإحضار الحلوى. التفت مارك إلى (هيلين) وقال لها: عزيزتي، أعلم أن خاتمك عزيز عليك ولكني أرى أنه من الأفضل أن تودعيه عند السيد جاك وسيحفظه لك، لقد سلمته بعض الرسائل المهمة أيضا، فما رأيك؟

ترددت قليلا لكنها سرعان ما أخرجت الخاتم وسلمته للسيد جاك لكنها قالت: لا أعرف لم كل هذا الاهتمام بالخاتم؟ لكنني سأفعل ما تريد يا سيدي!

- شكرا لثقتك يا عزيزتي.

جلسوا جميعا لشرب الشاي وتناول الحلوى فأحست (هيلين) بدفء العائلة الذي طالما افتقدته، كانت تشاركهم الأحاديث حينا وتنصت لهم أحيانا أخرى، علت ضحكاتهم والابتسامة لم تغادر وجوههم السعيدة. مرّ الوقت سريعًا عندما نظر مارك إلى ساعته وقال: لقد تأخر الوقت ويجب علينا العودة.

- امكثا هذه الليلة معنا.

- لا بد لنا من العودة، عندي أشغال كثيرة لا بد من إنجازها.
- لقد سعدت بلقائكما.
- سعدنا بالتعرف عليك يا آنستي.

ميري: عودوا لزيارتنا قريبا.

(هيلين): سأسعى لذلك.

ركبا العربة وأشار مارك لبيتر بالانطلاق، تحركت العجلات عائدة أدراجها إلى القصر الكبير. استولت الهواجس على (هيلين)، شعرت بالقلق، كانت المرة الأولى التي تترك فيها الخاتم، شكتْ بصحة تصرفها، أقلقها حرص مارك على خاتمها وخوفه من السيدة كاثرين إن هي علمت بأمره، بدا الأمر جنونيًّا صعب التأويل، حاولت نفضَ تلك المخاوف عنها حتى شعرت بالعربة قد توقفت في حديقة القصر!

- هيا يا (هيلين)، لقد وصلنا!
- كان طريق العودة قصيرا!
- كنت شاردة الذهن! ما الذي يشغل تفكيرك؟
- لا شيء يا سيدي.
- أهو الخاتم؟

لم تجب واكتفت بالنزول من العربة، سارا باتجاه شجرة التوت التي لا زالت تنتظر الربيع بينما الثلوج تغطيها.

- عزيزتي، لقد أدركت أن هذا الخاتم يعني لك الشيء الكثير، لذلك حرصت على بقائه في مكان آمن خصوصا أننا مقبلون على عملية خطرة.

لم تقتنع بكلامه لكنها فضّلت عدم الخوض بالأمر فآثرت تغيير الحديث: أخبرتني ساندي إن هذه شجرتك المفضلة!

- هذا صحيح، لي معها ذكريات طفولة جميلة. كنت آوي إليها كلما أحزنني أمر، أناجيها، أبثها أسراري وأخبرها بما يحزنني فتتحرك أغصانها وكأنها تواسيني.
- ما الذي كان يحزنك؟
- لا تعتقدي يا عزيزتي أن الأغنياء لا يحزنون، إن الحزن لا يميز بين أبواب الأغنياء والفقراء، فهو يطرق كل الأبواب.
- الحزن يقتحم الأبواب ولا يطرقها!
- معقول جدا!
- لم تجبني، ما الذي أحزنك يا سيدي؟
- أذكر أني كنت أبكي عند هذه الشجرة كلما زاد شوقي إلى أمي التي لا أذكر وجهها، لقد ودعت العالم بعدما وفدتُ إليه، كنت أحس بحاجتي إلى حضن دافئ يضمني ويدٍ حنونة تربّت علي لتخفف هلعي عند خوفي وتؤنسني عند وحشتي. بكيت عند هذه الشجرة عندما لم يحضر أبي لعيد ميلادي ببساطة لأنه نسي موعده! لم أكن أراه كثيرًا لكثرة انشغاله بأعماله. بكيت عندما ماتت زوجة أبي، كانت طيبة معي، حاولت أن تملأ حيزًا في وحدتي، بكيت عندما علمت إن ابنتها قد لحقتها بعد أيام من

موتها... ربما أكون قد بكيت أكثر من ذلك بكثير، لو أن الشجرة تكلمت لكانت أخبرتك المزيد!

سقطت عبراتها الساخنة على الأرض المتجمدة، بينما غصّ صوته بعدما خنقته العبرة، ساد السكوت لحظات فهبت نسمات باردة تلفح الوجه ببرودتها فأجبرتهما على الدخول إلى القصر، ولما وطئت أقدامهما عتبة بابه، استقبلتهما كاثرين بابتسامتها الباردة قائلة: أهلا بكما، أرجو أن تكونا قد استمتعتما بوقتكما.

- أجل.

اتجه نحو غرفة المكتبة بينما انصرفت (هيلين) إلى غرفتها وقد تركا كاثرين وحيدة تصارع غضبها العارم. أقبل عليها بيتر، أشارت إليه أن اتبعني، دخلا غرفتها، أوصدت الباب وقالت: أين ذهبا؟ وماذا فعلا؟

- ذهبا إلى منزل السيد جاك، شربوا الشاي وتناولوا الحلوى وتبادلوا أطراف الحديث.
- أهذا كل شيء؟
- أجل سيدتي.

انصرف بيتر تاركا كاثرين كبركانٍ ثائرٍ وقد راحت تحرك يدها أمام المرآة مهددة قائلة: تبا يا مارك، لقد باتت تصرفاتك مبهمة لا أفهمها، لكن هذا الحال لن يدوم، أقسم بذلك.

أصحاب مبدأ وعزيمة

كان التفكير بنجاح العملية يشغل ذهن مارك، خصوصًا بعد انضمام (هيلين) إليهم، كانت هواجسه القلقة وشبح الفشل يطاردانه كلما اختلا بأفكاره وحيدا. لم تكن المرة الأولى التي يعدون فيها لمثل هذه العملية لكنها ربما تكون الأخطر بينهم، فالعيون يقظة والتوتر سائدٌ في أرجاء البلاد. لم يخشَ على حياته يوما بل لطالما رحب بالموت لكن الموت أخطأه، أما هذه المرة فالأمر مختلفٌ كثيرا، فهناك (هيلين)، أخته التي يخشى عليها إن هو فارق الحياة، تمنى لو بإمكانه إخبار العالم بالحقيقة التي أثقلته لكن القلق أسكته. أحبها وقد أحسّ بطعم الأخوة الجميل الذي لم تتمكن كاثرين أن تمنحه إياه يوما، لم تكن كاثرين أكثر من مديرة منزل تتلذذ بإعطاء الأوامر، فمنذ الطفولة وضعت بينها وبينه حاجزًا جعله ينسى في أوقات كثيرة أن له أختًا في هذه الدنيا!

اجتاحت الذكريات مخيلته من دون رحمة فوجد في نفسه رغبة ملحّة للحديث مع (هيلين)، ففي الكلام معها راحة لنفسه المضطربة وكأنه كان يريد الاستزادة من جلوسه عندها خوفًا من أن يفرق القدر بينهما، وجد قدميه تسيران به إلى حيث غرفتها فطرق بابها، خشي أن تكون قد أوتْ إلى فراشها، هم بالانصراف لكنها فتحت الباب لترى وجهه الحزين وقد حاولت الابتسامة اقتحامه لكنها فشلت بشدة.

قالت بصوت حنون: سيدي مارك! أهناك خطب ما؟

أجاب بهدوء: هلا سمحت لي بالدخول؟

- بالطبع يا سيدي، تفضل بالدخول.
- لم أتمكن من النوم فذهني مشغول بسبب العملية.
- سيكون النجاح حليفنا، أنا و اثقة من ذلك.
- أتعرفين استعمال السلاح؟ تحسُّبا فقط!
- لم أستخدمه مطلقا!
- لا عليك، ستكونين معي وسأستخدمه إن لزم الأمر. أتمتطين الخيل؟
- أستطيع ذلك، ولكنني لست بارعة فيه.
- يكفي أنك تستطيعين ركوبه.
- اسمح لي أن أكون جريئة بسؤالي يا سيدي.
- اسألي ما تشائين يا (هيلين).
- لصالح من نحن نعمل؟
- لا لحساب أحد! نحن نعمل لحسابنا نحن! إيماننا بعدالة القضية أكبر بكثير من أن نعمل لحساب تنظيم أو حزب بعينه!
- أحست بإجابته توبيخًا لها لكنها استدركت: قصدت أن أسأل عن الذين يزودونكم بالمنشورات.
- أناس كثر، كلهم يؤمنون بالمعاني السامية التي نؤمن بها، لا تهم أسماؤهم و إنما أفعالهم.

أرادت أن تعرف إن كان السيد جاك مشارك معهم، لكنها أحست أنها قد أكثرت من أسئلتها فآثرت السكوت حتى لا تزعجه.

- لا بد أنك متعبة من السفر، سأدعك لتنالي قسطًا من النوم.
- لا أعتقد أنني سأتمكن من النوم بسهولة لكنني سأحاول.
- تصبحين على خير.

دخلت فراشها وقد أحست ببرودة تتسرب إلى أوصالها فتشبثت بغطائها وأطبقت جفنيها باحثة عن أحلام وردية، هاجمتها الذكريات من كل صوب، تذكرت طفولتها العصيبة، ذكريات من جوعٍ وبردٍ وضربٍ وتعنيفٍ راحت تدور في رأسها، لم يفارق ذاكرتها وجه المرأة العجوز المُزَمْجِر وهي تهوي عليها ضربًا بعكازها الخشبي أن تأخرت عنها أو أن أزعجها أمر، كم تمنت أن تنال بضعا من الوقت تمضيه باللعب مع أقرانها الذين كانت ضحكاتهم تطرق باب أذنيها، وهي مشغولة بأعمال البيت التي لا تنتهي. تذكرت الكرسي الخشبي الذي كانت تقف عليه، لتتمكن من الوصول إلى الموقد لطهي الطعام، لن تنسى الحرق الذي لا يزال أثره مطبوعًا على فخذها الأيمن بعدما فقدت توازنها و انسكب القدر بما فيه عليها، لن تنسى العقاب الذي نالته تلك الليلة لأنها سكبت الطعام فكان عليها تحمل الأمرين؛ ألم الحرق وألم الضرب!

ماتت العجوز لتبدأ (هيلين) مشوار التشرد، تذكرت الليالي الطوال حين كان عليها أن تتشبث جيدا بأوراق الأشجار لتكون لها غطاء في الشتاء البارد، زارتها ذكرياتٌ أليمةٌ كان أشدها عندما تذكرت صديقتها الوحيدة "صوفي"، جمعهما الجوع والتشرد، كانت تقاربها سنًّا، كان عهدها بالتشرد حديثا بعد أن هجر والدها البيت وماتت والدتها كَمَدًا ومرضا.

أصبحت متسولة بين ليلة وضحاها، لمحتها (هيلين) تستجدي أصحاب المحال وتقابل بالصد والشتائم، رقَّ لها قلبها، تقاسمتها خبزتها على صغر حجمها، تبادلتا الابتسام، كانت تلك اللحظة بداية صداقة دافئة خففت من برد التشرد، تعاهدتا على أن تحافظ كل منهما على تلك الصداقة مهما كان الثمن، كانت الأيام قارصة لم يكن فيها لأشعّة الشمس أي تأثير، كانت أسنان صوفي تصطكُّ بلا توقف بينما راحت تبعث ببعض السحب الصغيرة الدافئة من جسدها الضعيف لتدفئة يديها، وقفت أمام (هيلين) وقد قطعت طريقها فقالت:

لا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك يا (هيلين)، أكاد أموت جوعا وبردا!

- اصبري يا عزيزتي، لا يدوم حال على حاله! لا بد من غد مشرق يا صوفي.
- أنا لا أرى ذلك الغد يا (هيلين)، لقد سئمت هذه الحياة.
- كُتب علينا هذا الشقاء، علينا أن نصبر، فإما أن نهزمه أو نهلك.
- أنا استسلم!
- ماذا تنوين يا مجنونة؟
- أتذكرين ذلك الرجل الذي رمى لي بعض النقود مصحوبة بابتسامة وغمزة قبل أيام؟
- أجل، أذكر وجهه الوَقِح.
- دعاني إلى بيته!
- ماذا؟

- سيوفر لي ملجأ وطعاما نظيفين، لن أضطر للتسول بعدها، ربما أحبني وتزوجني بعد حين، من يدري؟!
- استيقظي يا مجنونة، أتبيعين روحك للشيطان، سيكون طعامك ومنامك أشد قذارة من ذلك الذي تعيشينه الآن! كيف لك أن تسمحي لذاتك بتدمير ذاتك؟ إنما أرادك ذلك الرجل ليستمتع بك قليلا ثم يرميك للشارع بعد أن يشبع رغباته ويستبدلك بأخرى! أما تهون عليك روحك الطاهرة من أن تدنسها بأيدي الوحوش الشيطانية؟ ارجعي إلى رشدك يا عزيزتي، ما أقصر الطرق المؤدية للضلال والضياع وما أسهلها وأشقاها! وما أصعب طريق العفة والشرف وما ألذه! أن تنعمي بعفة الروح وطهارتها وأنت تنامين على الحجارة وتلتحفين أوراق الأشجار المتساقطة يلفح جسدك الهواء البارد، وتأكلين خبزا يابسا، خير ألف مرة من أن تنامي على فراش ظاهره ناعم، لكنه يستر تحته نيرانا مضرمة لا تفتأ تأكل جسدك على حين غفلة.

طرق الضلال نهايتها مغلقة يا صوفي وهو طريق في مسار واحد لا عودة فيه، فالندم نهايته حيث لا ينفع الندم. لا يوجد طعام ومأوى أطيب للنفس من شعورها بالإنسانية، والطريق الذي تسلكينه يسلبك تلك الإنسانية يا عزيزتي.

- عزمت أمري يا (هيلين)، فلا تحاولي ردعي. وداعا.

غابت صوفي عن أنظارها بين المارة بلمح البصر، بينما ظلت عيناها متجمدتين حيث اختفت صديقتها الوحيدة وكأنها تتمنى رجوعها في أي لحظة، أحست بالحزن يهبط على قلبها فيعصره ويقطعه إربا متناثرة، أدركت أنها لا بد أن تشيد لصديقتها جنازة بعد أن سلكت طريق الضياع الموحش.

مرت أيام طوال، لم تسمع (هيلين) عن صديقتها خبرا، توالت الأسابيع والأشهر حتى ظنت أنها قد تكون أخطأت في تقديرها، قد يكون الرجل أحب صوفي فعلا! استبشرت لذلك الاحتمال خيرا، تمنت السعادة لصديقتها، مكنتها تلك الفكرة من النوم أخيرا.

في إحدى الليالي، كانت (هيلين) تنظر من أعلى الجسر إلى النهر الذي تجمدت أوصاله وعجز عن الحراك وكأنه يقول لها: أنا أشعر بالبرد كما تشعرين فلا تبتئسي! كانت شاردة في الأفق حيث الظلام دامسٌ فبدت الأرض والسماء متعانقتين لا يمكن الفصل بينهما، سمعت أنفاسا ضعيفة تقترب منها ببطء، التفتت فرأت فتاة التفت بعباءة رمادية، وقفت بالقرب منها، وما هي إلا لحظات حتى انهارت الفتاة وسقطت أرضا. هرعت (هيلين) لنجدتها، أسندت رأسها على كتفها، كشفت وجهها، أثارها منظر ذلك الوجه الذي أشبع باللكمات والجروح فلم يتبق فيه ما لم يذق ضربًا وذلا، تمكنت من تعرف الملامح القابعة ما وراء الجروح، صرخت: صوفي!

فتحت المسكينة عينيها الوارمتين، أرادت أن تبتسم سرورا بصديقتها لكن جراحها منعتها.

- ما الذي حدث يا عزيزتي؟

- كنت على حق يا (هيلين).
- ما الذي جرى؟
- رماني إلى الشارع يا عزيزتي بعدما استبدلني بأخرى.
- جبان حقير، لا عليك يا صوفي سأقف إلى جانبك.
- لقد وصلت إلى طريق مسدود نهايته الندم حيث لا ينفع الندم يا (هيلين)!
- لن أدعك وحدك، سأساعدك على فتح كل الأبواب.

كشفت صوفي عن عباءتها وإذا بسكين مغروس في خاصرتها، كانت تنزف بشدة بينما خارت قواها، أربك ذلك الجرح العميق (هيلين) التي عجزتْ عن فعل شيء سوى البكاء، كانت صوفي تنزف دما بينما نزفت (هيلين) دموعًا حارة بكت فيها صديقتها التي ودعت الحياة بين يديها، بعد أن أوصتها بالصبر الذي تخلت هي عنه مسبقا فلا بد من الغد أن يشرق شمسا!

آلمتها تلك الذكرى، لطالما لامت نفسها لعدم تمكنها من حماية صديقتها الوحيدة، كان لا بد من منعها من الذهاب، أن تبحثَ عنها بعدما اختفت كل تلك الفترة، لم يكن عليها أن تطمئن لفكرة إن صوفي تعيش هانئة.

كادت تلك الأفكار تخنقها، أغمضت عينيها فرأت مارك بابتسامته الحنون، كان مثالا للرجل الصالح، لم ينظر لها يوما نظرة طمعٍ على الرغم من توفر الفرص لذلك، كان كريما في كل شيء، أرجعت ذكراه الأمان إلى قلبها الحزين فاستقرت روحها وطاب نومها.

لم يكن حظ مارك من النوم أفضل من حال (هيلين) بعد أن أرقت الأفكار نومه تلك الليلة فقاطعته وسلبته إياه، لم يجد بدًّا من الاستسلام لها، غادر سريره واتجه إلى المكتبة، راح ينظر عبر نافذته إلى الحديقة التي اكتحلت بسواد الليل البارد، راح يحدق بالأشجار المتمايلة وقد بدت كنساء يلبسن الحداد ويتمايلن في رقصة حزينة استجابة للرياح العاصفة. غاص في بحر أفكاره حتى وصل إلى ما قبل سبعة أعوام حيث كان على وشك إنهاء دراسته الجامعية، كانت البلاد في حالة فوضى عارمة، فبعد أن اشتد الفقر بين الناس وانتشرت الأوبئة في الأزقة القذرة، وتقسم الناس إلى طبقتين واحدة فاحشة الثراء والثانية معدمة بينما اختفت الطبقة المتوسطة.

امتازت الأولى بالأرستقراطية والبرجوازية العفنة، حيث تحكم المظاهر أصحابها وتجعلهم يشعرون وكأنهم آلهة والبشر من حولهم خلقوا ليكونوا عبيدا لهم ولشهواتهم المخزية، فلم يترددوا في سحق من يقف بطريقهم ويخالف أوامرهم.

ففي الوقت الذي لم يجد فيه معظم السكان وهم من الطبقة المعدمة ما يسد رَمَقَهم، لم يستحِ المترفون من إقامة الولائم العظيمة والاحتفالات الماجنة، بل زادوا في فجورهم عندما راحوا يقيمون مهرجانات أمام الملأ يسفهون فيها الطعام باستخدامه في التسلية! فجعلوا مهرجانا لرمي قوالب الحلوى على الوجوه وآخر للقذف بالبرتقال وغيره للمشي على الطماطم! وبمجرد أن ينتهوا من لعبهم وفجورهم يتفرقون وقد أخذ السكر بعقولهم ليزيدهم بلاهة وسخفا، ثم يأتي الجائعون المتعبون في هذه الدنيا، ليلعقوا

بقايا الطعام المتناثر هنا وهناك وليبحثوا بين القمامات عن لقمة ضائعة، فإن ظفر أحدهم بشيء منها، استبشرت ثنايا وجهه واستشعر الفرحة والأمل الذي يدفعه للبحث بجد عله يجد لقمة أخرى!

كانت تلك الحالة كفيلةً بتفجير البركان المتّقد في قلوب أولئك المساكين، فخلف تلك الوجوه الصفراء والأجساد البالية، كانت تقبع إرادة الإنسان في العيش بكرامة واستعداد لمقابلة الموت على العيش بذل وهوان، فمن هناك انطلقت ثورة الفقراء فكانت ثورة الحق على الباطل، ثورة المبادئ والحرية، كانت ثورة متواضعة بإمكاناتها، جبارة بقوتها وإخلاص أصحابها. انطلق حشد من الناس في الشوارع وقد اندفعوا في جماعات غفيرة، يحملون عصيًّا مرددين شعارات الغضب المطالبة بأبسط حقوق الإنسانية؛ إننا بشر نستحق الاحترام!

عمت الفوضى أرجاء المدينة، بينما نزلت قوات الشرطة تحاول فرض الأمن بإنزال السياط على المتظاهرين، الذين لم يكن ألم السياط على ظهورهم أشد من ألم الفقر والهوان، لم يكن ليوقفهم شيء سوى الرصاص الذي راح ينبش أجسادهم ليسقطوا واحدا تلو الآخر.

امتلأت شوارع المدينة بالجثث، وانتشرت رائحة الموت في كل مكان، حصدت البلاد قرابة خمسمائة قتيل في ثلاثة أيام فقط؛ مما اضطر من بقي منهم إلى الانسحاب والهروب للمْلمة الجراح، راحت قوات الأمن تطاردهم في منازلهم لتزج من بقي منهم في السجون المزدحمة ليلاقي مصيره هناك من التعذيب والإعدام!

كان من المفترض أن تطوي الأيام صفحة تلك الثورة، لكن برعمًا صغيرا كان قد نما بعيدا عن أولئك الثائرين، تجسد بالشباب المتعلم الذي طالما رفض و اقع البلاد قبل الثورة لكنه كان مقيدًا بأغلال الخوف التي سرعان ما تقطعت عندما استمد أولئك الشباب القوة من المتظاهرين.

عندما قضي على الثورة كما بدا الأمر أولا، كان لا بد لتلك المجموعة أن تنشط ليبرز دورها في الدعوة إلى المضي قدمًا وعدم الاستسلام والخنوع، كان لا بد من شحذ العزيمة للموت في سبيل الحرية، فتكاتفوا فيما بينهم وشكلوا مجموعات سرية تقسمت أدوارها بين كتابة المنشورات وطباعتها وتوزيعها.

كان مارك واحدًا من أولئك المنادين بالحرية والمساواة، كانت مكانته الاجتماعية و انتماؤه إلى عائلة أرستقراطية، كفيلة بإبعاد الأنظار عنه، لم يتردد في نذر حياته في سبيل إحياء الثورة فكان صاحب مبدأ وعزيمة.

فـي بحـر الذكريات

كان يوما ثقيلا تلبّدت فيه السماء بالغيوم الداكنة التي كادت تطرد أشعة الشمس من السماء. كان الهدوء يعم القصر بأرجائه الواسعة، وهناك في غرفة من غرفه وأمام الموقد، حيث النار مشتعلة راح يتراقص لهيبها غضبا، جلست كاثرين على كرسيها الهزاز، أخذت تغذي النار بقطع من الخشب الصغيرة المعدة لذلك الغرض، استمتعت بمنظر النيران تأكل الخشب كما يمزق السبع أوصال فريسته.

انقادت وراء أفكارها وذكرياتها التي سحبتها بعيدا، تذكرت طفولتها المجردة من المعنى الحقيقي للطفولة، لم تحظَ يوما بحنان الأم الذي يتغنى به الشعراء ويتفنن به المبدعون، لم تكن لتنسى وجه أمها الغاضب وهي تصب جمر سخطها عليها، كانت شديدة الحرص على أن لا تغضبها، كانت تخشى اللعب فقد يعلو صوتها وتثور أمها فآثرت الصمت على الكلام والجلوس على الركض، كانت تملك دمية واحدة لها شعر أسود يشبه شعرها، كانت تجلسها أينما جلست، لم تكن تكلمها بل تكتفي بالنظر إليها وربما توبيخها إن حدث وثارت ثائرة الأم لسبب من الأسباب.

كانت أما تعسة كتب عليها العيش مع زوجٍ عربيد لا تراه إلا ليلا عندما يكون قد فقد صوابه في إحدى الحانات، تذكر أنها استيقظت مرارًا على صوت صراخ أمها التي كانت تستغيث وهي تتلقى الضرب والشتائم من ذلك الزوج الذي كان يتلذذ بتعذيبها.

لطالما حاولت التخلص من ذلك الصراخ بأن تدفن رأسها تحت الوسادة التي لم تكن قادرة على منع صوت النحيب من اختراق أذنيها. كانت تلجأ إلى دميتها فتهوي عليها ضربًا وهي تضحك، حتى تمزقت الدمية، نظرت مندهشة وهي تشاهد الدمية ممزقة، ما كان منها إلا أن حملتها ورمتها في القمامة وهي تنفض يدها وتقول: لا أحب الضعفاء!

بدت العدوانية واضحة في تصرفاتها، نفر منها الكبار والصغار على حد سواء، لم يكن لها أصدقاء قط، كانت مهمة المعلمين الذين حضروا لتعليمها، الأقسى بسبب صعوبة مراسها، لم تكن تتقبل الأوامر، لطالما عزفت عن إنجاز ما يطلب منها، لم تكن لتنسى علامات الدهشة التي ارتسمت على وجه أستاذها الذي طلب منها رسم لوحة للطبيعة، زودها بالألوان المتنوعة، حثها على استلهام الجمال الطبيعي بعدما جعلها تقف في الحديقة تنظر إلى الأشجار المورقة والسماء الصافية، كان يقف قبالتها لا يرى ما ترسم بينما راح يتغنى بروعة الربيع، رآها منكبّة على لوحتها بعدما قطّبت حاجبيها فبدت جادة في إتمام لوحتها على أكمل وجه، اعتقد أن في الرسم دواء لروحها المضطربة، سرعان ما أدرك خطأه بعدما أصابته الخيبة، انعقد لسانه بينما جحظت عيناه تعجبًا من لوحتها، كانت لوحة رمادية طغى فيها السواد! استبدلت أوراق الشجر الخضراء بأخرى سوداء داكنة، كانت السماء حمراء قانية وكأنها غاضبة من الأرض التي بدت رمادية، وقد نشب الحريق فيها وتصاعد الدخان إلى أعلى السماء ليختلط سواده بحمرتها، رسمت وجوها شاحبة وأخرى بلا معالم، أذهله منظر الفتاة التي رسمتها وقد اتخذت من

أجساد العبيد جسرًا تعبر عليه، عندما سألها عن الفتاة أجابته ببرود أنها هي وهؤلاء هم الخدم وكل من لا يطيع أمرها! كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي طلب منها أن ترسم شيئا!

فوجئت عندما شاهدت بطن أمها يكبر شيئا فشيئا، علمت أن هناك طفلا في الطريق، لم يكن ذلك البطن الكبير ليمنع أباها من تسديد ضرباته الموجعة، كان حملًا صعبًا لقت فيه الأم نهايتها عندما سلمت مفاتيح الحياة لرضيعها!

لم تذرف دمعة على أمها الراحلة، فاجأت من حولها عندما اقتربت من جسد أمها الذي استقر في لحده، أزالت الغطاء عن وجهها، استغرقت بعض الوقت تنظر إليه بتنعّم، قطعت صمتها بعدما قالت: أنت أجمل عندما تكونين ساكنة بلا روح، لن أشتاق لك. أدارت وجهها عن الجسد الراحل ثم مضت قدما!

كرهت صوت بكاء الطفل الرضيع، أرادتْ أن تسكته فلم يأتمر بأمرها فمدت يدها الصغيرة لتوسعه ضربا، كان على وشك أن يقضى عليه لولا تدخل الخادمة. كانت ترمقه بنظرات استنكار عندما كان يلعب في باحات القصر، لم يكن هناك من يزجره أو ليوقف روح الطفولة فيه، أبعدته عنها قدر استطاعتها، كلما أراد أن يمد لها يده طلبًا لحنان الأخت الكبرى زاد نفورها، لم يكن الحنان في قاموسها، كانت مصرة على ذهابه إلى مدرسة داخلية ليصفو ذهنها ولتنعم بالوحدة التي لم تدم طويلا، فسرعان ما اقتحمت زوجة أبيها خلوتها، لم تكن لتتقبل وجود امرأة أخرى في القصر،

كرهتها كرها كبيرًا لا لأنها حلت مكان أمها بل لأنها سترث من أبيها الذي هرم وقربت نهايته وبذلك تنقص حصتها من الميراث!

لم يمض غير عام واحد على زواجهما حتى أثمر طفلة ورثتْ عن أمها شعرها الأشقر وشفتيها الورديتين، كانت تلك الرضيعة حجرًا عثرة أمام كاثرين التي جن جنونها، لم تكترث لخبر موت أبيها بل كانت تنتظره بترقب! لم يبق أمامها غير الزوجة وابنتها لتنعم بالوحدة من جديد، حدث ما كانت ترجوه، انقض المرض على المرأة المسكينة فجعلها طريحة الفراش لا تقوى على الحراك.

لا تزال تذكر تلك الليلة وكأنها كانت البارحة، كانت ليلة عاصفة تناوب فيها البرق والرعد على السماء بينما اشتدت وقعات المطر تضرب الأرض تباعا، كانت سارة طريحة الفراش فاقدة الوعي، بينما كانت رضيعتها مستلقية في مهدٍ صغير وضع بالقرب من سرير أمها. تسللت من غرفتها بخطوات ثابتة وهي تحمل قارورة صغيرة، توجهت إلى غرفة سارة، كانت الخادمة تغط في نومها بينما علا شخيرها، تناولت قارورة الدواء الموضوعة على الطاولة، راحت تضيف من قارورتها إلى الدواء، كانت تعلم أن بضع قطرات كافية لإنهاء الأمر لكنها حرصت على تفريغ القارورة كلها. أنهت عملها بخفة ثم توجهت نحو سارة، أيقظتها لإعطائها الدواء، رضخت المسكينة متجرعة الدواء المروهي تردد: كيف هي صغيرتي؟ اعتني بها أرجوك. عادت إلى نومها الذي كان أبديا! طويت أحداث الجريمة التي لم يدرك وقوعها أحد!

حدث بعدها ما لم يكن بحسبانها، فبعد كل ما اقترفته يداها وجدت نفسها محرومة من الميراث، لم تكن تحظى بحب والدها، لم تشعر يوما بعطف الأب وحنانه، لطالما استقبلها بابتسامة باردة على الرغم من محاولاتها بالتودد إليه، خلف ذلك جرحًا كبيرًا في قلبها لم يندمل بل تحول مع الأيام لكره لذلك الرجل الذي أجهض طفولتها وخنق مشاعرها.

لا تخلو ذكريات طفولتها من صورته مترنحًا على سلم القصر وهو يدندن ألحانا سخيفة ينهيها بالشجار مع أمها، التي لا ينفك ينهي يومه بضربها وتعنيفها. حاولت كاثرين الابتعاد عن أبيها الذي لم يكن يردعه شيء، كانت تتجنب اللقاء معه، لكن أمر زواجه أفقدها صوابها، اقتحمت عليه خلوته ذات يوم فلم يرعبها وجهه المُزَمْجِرُ كما كان يحدث في الماضي؛ لأن السنوات رسمت على وجهها ثنايا أشد قسوة وعبوسًا أكثر ظلمة، فلم تخشه بل أطلقت العنان لنفسها توبخه وتلومه على زواجه من امرأة وضيعة مثل سارة وهي تؤكد أنه زواج مصلحة لا شيء سواه، فكيف لامرأة شابة جميلة مثل سارة أن تحب هَرِما خَرِفا مثله لولا طمعها بثروته! كان لذلك الشجار عقاب شديد ذاقت مرارته؛ ظفر مارك بالتركة كاملة من دون أن تحظى بشيء، لم تكن قادرةً على التخلص من مارك، كانت تدرك أن أصابع الاتهام ستوجه إليها إن هي حاولت ذلك، آثرت الابتعاد عن الأنظار فاختبأت خلف ستار المدبرة للمنزل ومديرته لا غير، لم يفارقها اعتقادها أنها مالكة القصر الوحيدة التي يحلو لها فعل ما تشاء فالكل عبيد تحت قدميها، لذلك اختارت أن تكون مديرة آمرة ناهية في القصر على أن تكون مجرد أخت مسكينة سلبت حقها

تعيش في ظل عطف أخيها الأصغر، لم تحتمل فكرة أن ينظر إليها الناس نظرة الاسترحام، إن تفشى خبر حرمانها من الميراث، فكان في إخفاء هويتها هروبٌ ناجحٌ من ذلك العار الذي تلبسها!

كانت غارقة في بحر الذكريات حتى قذفتها الأمواج إلى ما قبل سبع سنوات، عندما اكتشفت تورط مارك في عمليات سرية، أثار ذلك غضبها، أصرت على الانضمام للمجموعة لتشارك في توزيع المنشورات، لم يكن دافعها للانضمام هو الإيمان بالقيم التي ينادى بها، إنما أرادت أن تتعقب أخاها في خطواته، لم ترق لها فكرة عمله بعيدا عن أنظارها.

أدركت أن في عملهم ذاك من الخطورة ما يجعلها تقلق، كان خوفا مصدره انعدام الإيمان بمعانٍ سامية يتلاشى بها كل قلق. أغمضت عينيها علها تتناسى قلقها، طافت في مخيلتها صورة (هيلين) فارتسمت على وجهها ابتسامة حاقدة، كانت على يقين أن في انضمام الفتاة إليهم نهايتها الأكيدة، سرت في نفسها قائلة: يا لغباء هذه الفتاة، وافقت على الانخراط في عملية خطرة مثل هذه، لمجرد اندفاعها وراء شعارات رنانة لا فائدة فيها، أتمنى أن تكون نهايتك قريبة أيتها الدخيلة فقد بت مصدر إزعاج كبير!

الحقيقة

جلس بيتر في الاسطبل وحيدا مهموما، كادت الأحداث الغريبة تخنقه، أحس وكأنه على وشك الجنون، لم يكن مرتاحًا لأمر (هيلين) التي طالما أطلق عليها لقب الدخيلة، عد وجودها خطرًا على العملية وعلى سكون القصر، أزعجه أن تسبب القلق للسيدة كاثرين. أخذ يدق على الجدار، كان رافضًا لكل ما يحدث، راح يشكك في مصداقية الأمور، هي الأقدار ما شاءت أن يستمع إلى حديث السيد مارك مع السيد جاك، كان مارا بالقرب من النافذة التي لم يحكم إغلاقها، تسربت بعض الكلمات التي استوقفته، "تأكدت أن (هيلين) أختي!"، عبارة تردد صداها في أذنيه فأحدثت شدخا في رأسه لا يفتأ ينزف من دون توقف، شكك في سمعه، اتهم نفسه بالخرف، أمن المعقول أن تكون تلك الدخيلة ذات الثوب المرقع، التي وجدوها بين كومة ثلج هامدة أختًا للسيد مارك وللسيدة كاثرين؟ عجيب هو القدر الذي جعل السيد مارك ينتشلها من بين عشرات آخرين لا يقلون عنها بؤسا وشقاء! مجرد التفكير بالأمر كان كفيلا بإثارة القشعريرة في بدنه، لكن العبارة ظلت تتردد في رأسه، أحس بالضياع والحيرة، لم يكن يدري كيف يتصرف، أيخبر السيدة كاثرين؟ تصورها ثائرة يتطاير الشرر من عينيها، ربما يزيد ذلك الأمر سوءا، لم تعجبه فكرة الاحتفاظ بالسر، كان قد عاهد نفسه على خدمة السيدة كاثرين مهما كلفه ذلك.

أطرق وهو يعصر رأسه بشدة وينظر نحو الأفق الأبيض، عادت إلى مخيلته أيام الشباب، عندما كان ابن العشرين، كانت كاثرين حينها في الثامنة عشرة، لم تقع عيناه على أجمل منها، أحبَّ ثباتها، هدوءها، حزمها، رأى فيها امرأة قويةً لا تهزها الرياح، أحبها حبا جما، نما حبها في قلبه كنبتة حماها صاحبها مما كل ما قد يؤذيها، فعزلها عن البشر وعزل نفسه عنها فظلت النبتة مكانها ولم تثمر، لم يعلم بوجودها غيره، هكذا كان حاله، خشي من أن يفتضح أمر حبه لها فيلاقي صدًّا وجفاء، فهو خادمها وخادم أبيها من قبلها. منعه حبه الدفين من أن يخفي عنها سرا خطيرا، اعتبر ذلك خيانة لا تغتفر!

قام مسرعا يحث خطواته قاصدا السيدة كاثرين التي كانت لا تزال قابعة في غرفتها وحيدة، تجمد أمام بابها وقد لملمَ أنفاسه المبعثرة، دقت يده المرتجفة الباب فجاءه صوتها يدعوه للدخول. كان الخوف باديًا في عينيه، استجمع قوته قائلا: سيدتي، جئت أطلعك على أمر في غاية السرية والأهمية.

جلست على كرسيها الهزّاز والاهتمام واضح في عينيها اللتين راحتا تتفحصانه لقراءة ما يجول بخاطره، دعته للجلوس ففعل وقالت: قل ما عندك فأنا مصغية.

انعقد لسانه لكنه أخذ نفسًا عميقا وقال: أرجو أن تثقي بكلامي يا سيدتي فكل ما سأخبرك به هو الصدق بعينه، وأنا شديد الحرص على حياتك وسعادتك.

- شغلت بالي يا بيتر، أنت تعلم أني أثق بك وبوفائك، فقل ما لديك.

تشجع بعد عبارات الثناء تلك فقال: عندما ذهب السيد مارك مع الآنسة (هيلين) عصر هذا اليوم إلى المدينة، زارا منزل السيد جاك، كنت خارج المنزل كعادتي، مررت بالصدفة بالقرب من نافذة الصالة فسمعت حديث السيد مارك للسيد جاك:

- لقد تأكدت من حدسي تماما يا جاك، إنها هي!
- وكيف تأكدت من ذلك؟
- سألت كاثرين اليوم عن ابنة أبينا الصغيرة وعن ظروف موتها التي طالما بدت لي غامضة، صارحتني بكل برود أنها لم تمت، لقد ألقت بها على باب بيت سيدة عجوز وقد أبقت مع الفتاة خاتما ليكون دليل هويتها، تظن أنه لا يمكن لأحد التعرف على الخاتم سواها!
- وكيف تأكدت أنه ذات الخاتم؟
- منذ أن وقعت عيناي على الخاتم في المرة الأولى أدركت أنني كنت قد رأيته قبلا، كانت أفكاري مشوشة فلم أتذكر أين ومتى رأيته، قادتني ذكرياتي إلى زوجة أبي، نعم كانت تملك نفس الخاتم، لم أكن أنساه أبدا بتوهجه عند سقوط أشعة الشمس عليه. أنا سعيد يا جاك لمعرفتي الحقيقة!
- لا أعرف ماذا أقول يا عزيزي، فالدهشة عقدت لساني!
- تكفيني يا صديقي ثقتك بكونها أختي، (هيلين) أختي يا جاك!

انتهى بيتر من سرده وقد تصبب العرق من جبينه، استرق النظر إلى وجهها الذي تحول إلى جمرٍ ملتهب صاحبه ذهول وشرود، لم تقل شيئا،

اكتفت بتحريك كرسيها الهزاز الذي راح يصدر صوتا وكأنه صوت استغاثة أطلقته مفاصله القديمة! توقف الصوت فجأة بعد أن ثبت الكرسي، قالت وعيناها لا تزالان تحدّقان في الفضاء: وهل الخاتم معها الآن؟

- لا يا سيدتي، احتفظ به السيد جاك في منزله بناء على طلب السيد مارك الذي بدا حريصا على عدم إطلاعك على الأمر.
- وهي، أتعلم الحقيقة؟
- لا أظن ذلك يا سيدتي، بدا الأمر سرا بين السيد مارك والسيد جاك.
- اذهب الآن يا بيتر، سأطلبك عندما أحتاجك.
- سمعا وطاعة سيدتي.

أحست أنها تختنق، بدت الغرفة ضيقة خالية من الهواء، شعرت برغبة شديدة بالصراخ، كانت تعتقد أنها عندما قتلت زوجة أبيها كانت قد تخلصت من رأس الأفعى، لكن ها هو ذا ذيلها يعود إلى القصر ثانية! شعرت بطاقة هائلة من الكره والحقد يملآن قلبها، ودتْ لو تنبت أظافرها في صدر مارك، أثار تخطيطه واحتفاظه بالسر أحقادها الدفينة، بدت الأمور منطقية أكثر الآن، استطاعت أخيرًا أن تجد تفسيرا لكل ما يحدث؛ شروده المتواصل وتأمله بصورة العائلة، إصراره على بقاء الدخيلة، وجفاؤه في التعامل معها بعدما كان لا يعصي لها أمرا، اعتبرته أحمقَ عندما وافق على اشتراكها في العملية وعندما ظن أنه يملك أن يخفي عنها سرا!

لم يكن نصيب (هيلين) من ذلك الحقد أقل حظًّا من مارك! اعتبرتها نذير شؤم منذ اللحظة الأولى لدخولها القصر، أحست بالذنب؛ لم يكن ندما على ما اقترفته يداها، بل ندمت لأنها اكتفت برمي الطفلة خارج القصر ولم تنزع عنها شفتيها الورديتين الطريتين، عندما كانت في مهدها، لكانت ارتاحت منها راحة أبدية!

توجهت إلى مكتبها، جلست بهدوء، فتحت درجه العلوي، أخرجت سلاحها، راحت تشمه وتتأمله، عقدت عليه آمالا، كانت حاسمة على التخلص من (هيلين) وكل من يقف في طريقها!

الكـابـوس

كان مارك يغط في نوم عميق وقد تدثر في فراشه بعد يوم مُضنٍ، كانت المرة الأولى التي يتمكن فيها من النوم بعمق بعد ليال عدة تملكه الأرق فيها، تسللت الأحلام خلسة كعادتها حيث تسخر من النائم كما يسخر القدر من الأيام. بدا حلمًا ورديًّا جميلا، رأى فيه (هيلين) وهي تنعم بعطفه وحنانه وهو ينعم بمحبتها التي حولت القصر البارد إلى بيت دافئ ينبض بالحياة، كانا جالسين في ظلال شجرة التوت وقد ذاب الثلج عنها واكتستْ أغصانها ثوبها الأخضر، الذي رحب بالعصافير لتبني أعشاشها بعدما حل الربيع، ملأت ضحكاتهما الأجواء لتحلق مع الفراشات الفرحة بشذى الورود، وفي لحظة سريعة بدا له أن الشمس تخلت عن الربيع حيث حل الظلام! كانت كاثرين تقف خلفهما وهي تسكب دلوا تلو آخر من الدم القاتن فوق رأسيهما؛ فصيرت المكان أحمر وقد جرّت (هيلين) من شعرها وأحكمت قبضتها على رقبتها تريد خنقها، أراد إنقاذ أخته لكن قدميه كانتا قد علقتا بلزوجة الدماء على الأرض، سقطت (هيلين) جثة هامدة وهو واقف متفرج لا يستطيع الحراك، بينما كشرت كاثرين عن أسنانها عندما ارتفع صوت ضحكها الذي امتلأ حقدا وكراهية، صرخ صرخة مدوية استيقظ فيها من ذلك الكابوس، قفز من فراشه مفزوعًا وقد تصاعدت أنفاسه الملتهبة، جال ببصره في أنحاء الغرفة مفتشًا عن الربيع، ثم راح ينظر عبر النافذة وكأنه يريد التأكد من أن الثلج لا يزال يغطي شجرة التوت وأنه لم يكن سوى حلم مزعج سلبه نومه الهادئ.

هدوء قبل العاصفة

إنها الثامنة والنصف مساء عندما قرع الجرس كالعادة معلنا وقت العشاء، جلست كاثرين إلى الطاولة والبرود القاتل يعلو وجهها العبوس، انضمت إليها (هيلين)، بخطوات هادئة من دون أن تَنْبِسَ بكلمة، اتخذت لها مجلسا، لحقهم مارك فكان لحضوره أثر طيب في نفس (هيلين) التي تبسمت له فبادلها الابتسام، رمقته كاثرين بطرفها وهي تقول: ما تعودنا جلوسك معنا على الطاولة فهل جد جديد؟

استنكرت (هيلين) تلك اللهجة التي تتجرأ بها كاثرين على سيدها، ما هي إلا مديرة منزل فبأي حق تسأل! استدرك مارك الموقف فقال متجاهلا سؤالها وهو يسكب الطعام في صحنه: ستكون الليلة باردة جدا وأرجو ألا تتساقط المزيد من الثلوج.

جلسوا جميعا والطعام أمامهم لكن الشهية قد فرت بعيدا، حيث حل مكانها الحيرة والقلق، كانت أعينهم تتبادل النظرات الحائرة من دون كلام، قام مارك إلى مكتبه تاركا كاثرين و(هيلين) في صمتهما العقيم، استغلت كاثرين غياب مارك فقالت: قيل لي إنك كنت تعيشين في منزل سيدة عجوز.

- هو كذلك سيدتي، هي من آوتني وربتني.
- أهي قريبتك؟

- كلا، قالت لي أنها وجدتني أمام عتبة منزلها عندما كنت رضيعة في المهد.
- ألم تقل لك من هم أهلك وذووك؟
- لم تكن تعرف لتخبرني...

أرادت (هيلين) أن تذكر أمر الخاتم لكنها تذكرت حرص السيد مارك على إخفاء الأمر عنها فآثرت السكوت.

- وماذا أيضا؟
- لا شيء، هذا كل ما في الأمر.
- لا بد أن أهلك قد رموك لأنهم لم يرغبوا بك، ربما لم تكوني لتشرفي عائلتك ففضلوا رميك بعيدا عنهم.

كان كلامها كالأسهم الجارحة موجهة إلى قلب (هيلين) التي لم تعرف بم تجيب، كانت تلك الخواطر ما فكرت به مسبقًا لكن ثقل عليها أن تسمعها على لسان آخرين، فضلت الصمت، كم تمنت أن تجد يوما خيطا يرشدها إلى أهلها، كان قلبها الدافئ هو الذي يدفعها لخلق الأعذار لهم، احتمالات عديدة تلك التي نسجتها مخيلتها، وقصص كثيرة حاكتها وهي تحبك قصة أهلها الذين لا تعرفهم والأحداث التي ربما عايشوها قبل أن يتركوها رضيعة وحيدة، فحينا تروي قصة زوجين عاشقين فرق الزمن بينهما، وثانية تجعل من والديها مشردين لا يملكان ما يسكتان به صراخ طفلتهما الرضيعة، وثالثة تجعل فيها رحيل والديها بسبب مرض فتك بجسديهما وخافا أن تنال العدوى جسد ابنتهما الوحيدة.

أو ربما يكونا قد قتلا لسبب آخر أو أن أمها فارقت الحياة عند ولادتها، وأخرى من القصص والحكايات التي طرقت مخيلتها في ليال طويلة راحت تسأل فيها النجوم، من أكون؟! لم تشأ أن تشارك بها أحدا فاحتفظت بها علَّ الأيام تكتشف لها ما كان مخفيا!

أدركت كاثرين أنها لن تفلح باستحصال معلومات أخرى، فهي على علم بشأن الخاتم الذي أصر مارك على كتم أمره وها هي ذي (هيلين) تنفذ أوامره بحذر شديد، همت بالمغادرة لكنها توجهت نحو (هيلين) وربَّتت على كتفها بشيء من القوة وقالت: كوني على حذر دوما يا صغيرة!

أثارت عبارتها قلق (هيلين)، تعجبت من كم الكره الذي تحمله تلك المرأة في قلبها، أقبلت عليها الخادمة ساندي بابتسامتها المرحة، أدركت من فورها أن سيدتها قلقة، بان الحزن على وجهها فبادرت بالسؤال: ما الذي يشغل ذهن سيدتي الجميلة؟

- ألا ترين يا ساندي أن السيدة كاثرين امرأة غامضة؟

امتعضت ساندي وقد هزت رأسها موافقة وقالت: لم أر امرأة حاقدة على الدنيا مثلها أبدا! يقال إنها تعاني من مرض نفسي!

- أمن المعقول أن يوظف السيد مارك امرأة مريضة لتكون مديرة منزله؟

همست ساندي قائلة: يقال إنه واقع في حبها!

تذكرت (هيلين) جفاء مارك في العربة في طريقهما إلى المدينة، وصبره على تجاوزات السيدة كاثرين المستمرة في حديثها معه فأثار ذلك حزنها وهي تقول: حقا!

انتبهت ساندي إلى شرود (هيلين) فقالت: ما الأمر يا سيدتي؟

- لا شيء، أشعر ببعض الإعياء، سأذهب إلى غرفتي.

لعبة المشاعر

كان غضب كاثرين أشبه بريحٍ عاتيةٍ قادرةٍ على تدمير ما تصادفه في طريقها، كانت بارعة في إخفاء ذلك الغضب واستبداله بابتسامة البرود التي طبعت على وجهها منذ الطفولة! كانت حريصة أشد الحرص على كتمان مشاعرها وبالأخص أمام مارك، لم تكن تريد إثارة الشك في نفسه، لطالما نظرت إليه نظرة المغفل الذي يسهل خداعه، لكنها تفاجأت هذه المرة بقدرته على حياكة الأسرار بعيدا عنها.

في ذلك الليل الرهيب والصمت مخيّم على المكان، كانت غرفة كاثرين يقظة انبعث منها ضوء الشموع المتراقص، كانت الهمسات تتردد في أرجاء الغرفة وقد انعكس خيال كاثرين وبيتر على الحائط الذي جلسا قبالته. نظرت في عينيه بمكر، أرادت أن تذوب عينه فيها فحنّنت صوتها ورققت كلامها قائلة: عزيزي بيتر، لقد أظهرت لي ولوالدي إخلاصًا ووداً لم أر له مثيلا في حياتي، إنك إنسان مخلص بالفعل.

أدخلت تلك الكلمات السعادة على قلبه الظمآن فقال بصوت رقيق: إنه ليسعدني يا سيدتي أن أحظى بشرف خدمتكم.

تابعت قائلة: أنا لا أثني عليك مجاملة يا عزيزي، أنت معنا في هذا القصر منذ زمن بعيد، لا زلت أذكر عندما استقدمك أبي للعمل في الإسطبل، كنت فتى يافعا عندها، لقد كبرنا معًا يا بيتر، أنت تعرف عني الكثير، ربما أكثر مما يعرفه عني أخي مارك!

كانت كلماتها كفيلة بإيقاد شعلة الحب الراكدة في قلبه المتوجع، أحس وكأن أحاسيسه تذوب فيها، رسم ابتسامة خجلى وهو يهز رأسه مستمتعا بحديثها فتابعت قائلة: أنا واثقة أنك ستقف إلى جانبي دوما، أنت ساعدي الأيمن يا عزيزي الذي إن لم أتكئ عليه تعثرت، أليس كذلك يا بيتر؟

ذابت كلماتها في حرارة قلبه المتقد فأجابها مطيعا: أتبع سيدتي أينما شاءت حتى لو كان فيه هلاكي، أنا رهن إشارتك يا سيدتي، مريني فأطيعك.

كان من السهل على امرأة بدهائها أن تدرك عظيم حبه لها، أعجبتها لعبة المشاعر هذه، لم تكن تعلم أنها تجيد هكذا نوع من الأدوار، قررت الاستمرار في تلك اللعبة، قامت من كرسيها فلحقتها نظراته المتحيرة، مدت يدها إلى شعرها المسدل على كتفيها كليلٍ أسود طويل فداعبته بخفة، توقفت عيناه فبدتا جامدتين لا ترمشان، لم يعد يرى شيئا غير صورتها، لم يرها بمثل هذا الجمال من قبل، رفرف قلبه حتى كاد يخرج من جسده ليطير إليها، جلست على كرسيها الخشبي الهزاز بينما كانت عيناها لا تفارقان عينيه المندهشتين والابتسامة الماكرة مرسومة على وجهها، ثم قالت: لقد تعبنا من الوَحدة يا بيتر، أليس كذلك؟ أتعتقد أني لا أعلم بحبك لي يا عزيزي، لقد انتظرتك طويلا حتى كلَّ قلبي، كيف لك أن تحمل كل هذا الجفاء يا بيتر، أما رق قلبك على هذه المرأة المسكينة؟

- سيدتي!
- قل لي حبيبتي!

لم يكن يصدق ما يسمع ويرى، هل أشرقت الشمس على حبه ليورق ويثمر؟، كم طال ركود ذلك الحب، لطالما ظن أنه حب من طرف واحد، أدرك كم كان مغفلا في ذلك، تقدم نحوها وقد سحرته كلماتها وحركاتها فغادر إلى عالم الخيال الجميل، أقبل عليها، أمسك يديها وهو يناجي: حبيبتي!

اقترب منها أكثر وهو يتأمل حبيبته، كم حلُم بتلك اللحظة حين يضمها إلى صدره، أدركت أنها اللحظة المناسبة للحصول على ما تريد، أبعدته عنها بلطف وتراجعت إلى الوراء ثم قالت: ليس بعد يا حبيبي.

كانت نظراته حائرة فتابعت: أنت تعلم يا بيتر أني تنازلت عن ميراثي من أبي إلى أخي مارك، وارتضيت أن أظهر أمام المجتمع بمظهر مديرة القصر مع أني صاحبته، كان ذلك تضحية وحبًّا مني لأخي، أردته أن يبرز للمجتمع الراقي سيدا آمرا ناهيا لا ينازعه أحد فيما يملك، فهل تعتقد أني أخطأت شيئا؟

- أبدا يا عزيزتي بل كان ذلك نبلا منك وكرما.

قالت بصوت حزين منكسر: هل يرضيك يا عزيزي بعد كل ذلك، أن أطرد من هذا القصر لأني ضعيفة منكسرة؟

- لست كذلك يا حبيبتي، فأنا إلى جانبك، وأنا مستعد للدفاع عنك حتى آخر رمق في حياتي، ولكن من يجرؤ على إيذائك يا عزيزتي؟
- تصور يا عزيزي: إن أخي الذي لا يوجد لي أخ سواه في هذه الدنيا، والذي ربيته كأم له وسهرت على راحته يريد ذلك!

قاطعها باستنكار: سيدي مارك!

- أجل، صدقني يا عزيزي، لقد سمعته يتحدث بذلك إلى تلك الدخيلة، لقد وعدها بأن يطردني من القصر بعد إنهاء العملية وذلك إرضاء لها!
- لا أكاد أصدق ذلك! ولكن لماذا؟

سمعتها تشكو إليه وجودي في هذا القصر، فهي تبغضني وتريد إبعادي عن مارك.

- إنه عمل دنيء حقا، لن أسمح بحدوث ذلك.

لمعت عيناها سعادة بما سمعت، أخذت تدور حوله وهي تصطنع التفكير العميق، كانت على ثقة من أنه سينفذ لها ما تريد وتطلب، وقفت أمامه ونظرت إلى عينيه الولهانتين، وضعت إحدى يديها على كتفه بينما جعلت الثانية تلاطف خده، سرت قشعريرة في جسده أحست بها وقالت بنبرة واضحة: أريد منك أن تتخلص من الدخيلة!

شعر أنه يهوي من أعلى جبل شاهق، ليصطدم بأرض صُلبة هشمت عظامه المتطايرة، قال بصوت متقطع: ماذا؟ كيف؟

لم تفارق عيناها عينيه فتابعت: أنت أعلم يا عزيزي!

رأت الاستنكار والتردد في عينيه، أغضبها ذلك فنفضت يديها عنه وقالت: إن التخلص من تلك الدخيلة لا يعنيني وحدي فقط،

إن فيه مصلحة للجميع، تذكر أنها ستر افقنا في عمليتنا القادمة مما يشكل خطرًا علينا جميعا، إن وجودها بيننا يثير الشبهة، يجب التصرف بسرعة قبل موعد العملية!

دارت الأفكار بسرعة في رأسه، أحس بالاضطراب والحيرة، هل يرفض قتل فتاة لم ترتكب ذنبًا في حياتها التعسة، ويحظى بقلب معشوقته التي نذر نفسه في سبيلها؟ كيف يخونها وقد أقسم الوفاء لها؟ هو مستعدٌ لبذل حياته في سبيل إسعادها.

أمسكت يديه بحنان وقالت: قتل تلك الدخيلة هو مهري يا حبيبي!

وقعت كلماتها في قلبه وقع الثلج على الجمر، غصّ غصة وقال: أنا أعشق التراب الذي تطؤه قدماك والهواء الذي تتنفسين، سأقدم لك المهر الذي تختارين لأظفر بقلبك الذي لا يطيق قلبي العيش من دونه.

توجهت نحو مكتبها، أخرجت السلاح وقدمته له وقالت: هذا سلاحي يا بيتر، إنه تحت تصرفك، سأنتظر ما ستفعل بفارغ الصبر يا حبيبي.

أخذ السلاح وقال بتردد: أما توجد وسيلة أخرى للتخلص منها غير هذه يا عزيزتي؟

أغضبها قوله فاحمر وجهها وسحبت السلاح من يده وقالت: أتظنني مجرمة أحب سفك الدماء وأتلذذ بها؟ أنت خائف يا بيتر وأنا لا أحب الخائفين، يبدو أنني طرقت الباب الخاطئ عندما فتحت لك قلبي! أين حبك وإخلاصك يا بيتر، لقد خيبت ظني بك، كنت أعلم أنني وحيدة في هذا العالم القاسي.

تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه: حبيبتي...

قاطعته: اخرج يا بيتر، اخرج وانسَ ما داربيننا!

بدا كالحمال يحمل من الهموم ما ثقل، تراجع والحزن مخيم على وجهه، أدركت أنها نجحت في إقناعه، كانت واثقة كل الثقة أنه سيقبل على ما تريد إرضاء لها. نامت ليلتها هانئة مترقبة حصول ما تحلم به.

الخطـة

جلست (هيلين) في غرفتها والحزن قد أثقل كاهلها، لم تكن تعرف له سببا، ما كان يحزنها في الأمس القريب صار لا يخطر على بالها، لم تعد تقلق للمأكل والمسكن، لكنها لا زالت حزينة! ترددت عبارة ساندي في رأسها، السيد مارك معجبٌ بالسيدة كاثرين، وجدت في ذلك تفسيرًا لتصرفات كاثرين الجريئة مع الجميع عموما ومع مارك خصوصا، أدركت أن حبه لكاثرين هو ما يمنعه من التودد لها وإن بادرت هي بذلك، تذكرت انصرافه عنها في العربة فآلمتها الذكرى، حاولت أن تعزي نفسها، من هي ليغرم بها رجل مثل السيد مارك؟ فتاة مشردة لا يعرف لها أصل، سخطت على ذاتها التي سحبتها إلى مثل هكذا أفكار بلهاء، تذكرت حالها بين الأمس واليوم، طردت أفكار الحب والغرام من رأسها، لن تستمع لاعتراضات قلبها المحموم بحمى الحب العنيدة، أقنعت نفسها أنها أعجبت بالسيد مارك لأنه رجلٌ حنون ذو قلب كبير مد لها يد العون و أنقذها من الهلاك، كان حبًّا منبعه الشعور بالامتنان، حاولت جاهدة زرع هذه الفكرة في رأسها وطرد أي أفكار سواها! شعرت بالارتياح وقد زال جزء كبير من همها، استسلمت لنوم هادئ وابتسامتها مرسومة على شفتيها النضرتين.

قرعت الشمس طبول الصباح مؤذنة بحلول يوم جديد، بينما لا يزال الثلج محتلا الأرض المرتعشة من البرد الشديد حتى تفتحت عيون النائمين وهكذا استيقظت (هيلين).

فتحت نافذة الغرفة طلبا لقبلة الصباح، لفح وجهها هواءٌ بارد حرك شعرها السابل الطويل، نظرت إلى شجرة التوت القابعة وسط الحديقة، تذكرت حوارها مع السيد مارك عندما حدثها عن الغاية العظيمة والهدف النبيل والانتحار الشريف، راحت تسترجع كلماته وكأنها تريد التأكد من جاهزيتها: عندما تحين ساعة العملية سننطلق أنا وأنت وكاثرين وبيتر وخمسة خدم، سنخرج من باب سري مدخله قبو القصر المظلم، في الخارج ستكون ثلاثة عربات بانتظارنا، ستركب كاثرين وبيتر في عربة والخدم الخمسة في أخرى، بينما نركب أنا و أنت الثالثة، ستنطلق العربات تباعًا بحذر شديد، ستتوجه عربتنا إلى كوخٍ صغير في أطراف المدينة، سيكون بانتظارنا مجموعة رجال كانوا قد أعدوا المنشورات، نتسلمها منهم ونتبادل العربات؛ هم يركبون عربتنا ونحن نصعد عربتهم، نتوجه بعدها إلى المدينة، كل إلى هدفه، سأكون معك في كل خطوة، سنذهب إلى بناية قديمة، ستصعدين سلمها الطويل حتى نهايته، هناك ستلقين رجلا، قولي له: "غاية شريفة"، تسلمينه حزمة من المنشورات بينما أكون بانتظارك في الأسفل أراقب المكان، إن حدث شيء مريب أو سمعت إطلاق نار فانجي بحياتك ولا تحاولي البحث عني أو إنقاذي، إن سارت الأمور كما يجب، نستقل العربة ثم نتركها في إحدى الأحياء لنكمل سيرًا حتى محطة القطار، نستقل إحدى القطارات المتوجهة إلى القرية

الشرقية، هناك نلتقي برجال آخرين، سنتعرف عليهم إن أخبرونا كلمة السر، حينها نسلمهم باقي المنشورات، نتنكر بملابس جديدة ونستقل بعدها قطارًا جديدا إلى القرية الغربية، نبيت ليلتنا في أحد النزل، ثم نعود في الصباح أدراجنا إلى المدينة ومنها إلى القصر، التمويه هو الهدف من إطالة الطريق لا شيء آخر، الأهم من كل شيء يا عزيزتي أن تكوني صامدة الإرادة وأن يكون الحذر رفيقك أينما تذهبين، لن أفارقك لحظة فلا تقلقي. ستسير الأمور على ما يرام.

بمجرد أن استرجعت تفاصيل الخطة، كانت دمعتها مترقرقه في عينيها، أحست بالدفء على الرغم من برودة الهواء، كان دفء الإيمان بعدالة القضية، تذكرت حياة البؤس التي كانت تحيا، تذكرت حال المئات ممن خلفتهم في بؤسهم وشقائهم، قطعت على نفسها عهدًا أن تجتهد في إنقاذهم أو أن تهلك دون ذلك.

لقد رحل!

كان مارك غاطًّا بنوم عميق على الرغم من أن الشمس أرسلت أشعتها الذهبية، مغازلة وجهه الناعس، لم يوقظه غير طرق الباب الذي ألح عليه بالنهوض بتثاقل، كانت ابتسامة كاثرين الباردة هي أول ما بدأ به يومه، قالت متوددة: صباح الخير يا أخي، إنها الثامنة وما تزال نائما!

عبس وجهه بينما راح يفرك عينيه وقال: لم أيقظتني يا كاثرين، كنت أنعم بنوم هانئ، أنت تزعجينني دوما!

رأت فيه طفلا على هيئة رجل، لم تعتقد يوما بأنه قادر على تحمل المسؤولية، اعتبرت أمر انضمامه لجماعات سرية مجرد حماقة أو نزوة من نزو اته الطارئة، استدركت قائلة: قم يا أخي فلا يجوز لصاحب القصر أن يبقى نائما إلى هذا الوقت، أعمال كثيرة بانتظارك!

حاول قراءة عينيها، باءت محاولته بالفشل، كيف لا وهو أمام المرأة السر، استسلم لها وقد ودّع النوم عينيه، لم يتبادلا الحديث على مائدة الإفطار، بدا الجو مشحونا، لم يحاول أي منهما كسر ذلك الصمت، كل غارق في أفكاره ومخاوفه، اتجه إلى المكتبة بينما كانت نظراتها تصحبه حتى اختفى عنها خلف الباب، وجد (هيلين) تعمل بنشاط دؤوب في تصنيف الرسائل، انشرح قلبه لرؤيتها، علت الابتسامة وجهه وهو يقول: صباح الخير يا عزيزتي.

- أهلا بك سيدي، صباح الخير.

- ماذا لدينا اليوم من رسائل؟
- هناك رسالة مستعجلة من المدينة.

فض الرسالة وشرع في قراءتها بتأن، بانت على وجهه علامات الاهتمام والانتباه، استشعرت (هيلين) انزعاجه فبادرته بالسؤال: أرجو ألا يكون في الرسالة ما قد يزعج سيدي!

- وجب عليّ المغادرة فورا إلى المدينة لأعمال معلقة هناك، يبدو الأمر طارئا.
- هل سيغيب سيدي طويلا؟
- ربما ثلاثة أيام أو أكثر إن اقتضى الأمر!

شعرت بالحزن والضيق، كيف لها أن تحتمل غيابه كل تلك الأيام؟ بدا الأمر شاقًّا وبالأخص مع وجود امرأة غريبة الأطوار مثل كاثرين. لاحظ شرودها فانتبه قائلا: لم أكن أحبذ السفر في مثل هذه الأيام وقد اقترب موعد العملية، لكن الأمر مستعجل لا يحتمل التأخير.

لم تبرح الصمت فأعقب: وددت لو كان بإمكاني اصطحابك لكنها رحلة عمل وستضجرين فيها.

- لا تقلق يا سيدي، ستكون الأمور على ما يرام.

ما هي إلا ساعة حتى كان مارك مستعدا للسفر، وقف بالقرب من عربته بينما كانت كاثرين و(هيلين) تقفان إلى جنبيه، كان قلب الأولى مملوءًا بالكره

الدفين، يتمنى عدم عودته بينما راح قلب الثانية يبكي للفراق منتظرا عودة المسافر السريعة!

نظر في عيني (هيلين)، راحت عيناه تحكيان الكثير، قصة أخت لا تعرف أخيها، لم تتمكن من فهم لغة العيون تلك، اكتفت بالابتسام، قال لها: احرصي على سلامتك يا عزيزتي.

- سأفعل يا سيدي.

التفت إلى كاثرين مودعا: اعتني بالقصر وبـ(هيلين) أثناء غيابي يا كاثرين.

كظمت غيظها بينما حافظت على برود ابتسامتها وقالت: سأفعل.

لم يكن بيتر بالجوار على غير عادته، ناداه مارك بأعلى صوته أن حان وقت المغادرة يا بيتر، لكنه لم يسمع غير صدى صوته، بدا الأمر مريبا، كانت تلك المرة الأولى التي يناديه فيها ولا يلبيه! ارتفع صوت استغاثة قادم من بعيد، كانت ساندي تركض فزعة باكية، سقطت عند قدمي مارك وراحت تلطم خدها وتشق جيبها وهي تصرخ، أثار منظرها الفزع في قلوبهم، حاول مارك تهدئتها: ما بالك يا ساندي؟ أخبريني بما جرى.

حاولت أن تكفكف دموعها وتستجمع صوتها المتقطع فقالت: إنه بيتر يا سيدي، لم أره اليوم باكرا كعادته، أقلقني ذلك، فتشت عنه في أنحاء القصر ثم وجدته في غرفته وقد فارق الحياة! كانت السكين مغروسة في خاصرته وهو ممدّد على فراشه غارق في بحر من الدماء، مات بيتر يا سيدي! يا ليتني مت قبله! وا أسفاه عليك يا بيتر.

وقع الخبر كصاعقة أذهلت الجميع، لم يجدوا تفسيرا لما حدث، إلا هي؛ المرأة السر، اشتعلت غضبا وقالت في سرها: يا لك من إنسان مهزوز ضعيف يا بيتر، جبنت فقتلت نفسك، جرذ حقير، أخطأت حين تصورت أنه يمكنني الاعتماد عليك، أثبتّ لي ضعفك، أنا أكره الضعفاء! حسنا فعلت إذ قتلت نفسك، وفرت علي أمر التخلص منك في حال أن عصيت أوامري!

لم تتمالك (هيلين) دموعها التي انهالت باكية معزية ذلك الخادم الوفي، توجهوا جميعًا إلى غرفته حيث كان جسده المضرج بالدماء، انتبهوا إلى رسالة تركت على الطاولة، قرأها مارك بصوت مسموع:

"لم يقتلني أحد، قتلت نفسي من أجل التي عشقها قلبي ولم يعد يطيق فراقها، لم أستطع تحمل كلماتها الجارحة واتهامها لي بالخيانة، فالمغرم لا يخون يا حبيبتي، عشقتك منذ أن وقعت عيناي على محياك، أنت غذاء لروحي الجرداء، وبلسم لجروحي العتيقة، اغفري لي يا حبيبتي إن كنت أسأت لك، وداعا. المخلص لك دوما، بيتر".

كاد يغشى على ساندي بعد أن سمعت الرسالة، ظنت المسكينة أنها المعنية بكلامه! راحت تلوم نفسها، اعتقدت أنه قتل نفسه بعدما اتهمته بالتهرب والتغير، ظنت أنها عندما اصطنعت الدلال أثقلت على قلبه الرقيق الذي لم يتحمل ذلك؛ فاختار توديع الحياة! جثت عند جثته وهي تقول باكية: أنت سامحني يا حبيبي، كم كنت غبية حقا!

اصفر وجه كاثرين وقد ازدرت كل ما يدور حولها وكتمت في سرها: يكفيك أيتها الحمقاء فما قصدك أنت! لم أسأله أن يحبني، هو من أباح

لنفسه حب سيدة من الطبقة العليا وقد تناسى أصله الوضيع! هزت كتفها وهي تشيح بنظرها عنه وتقول: فليأت أحد الخدم ليرفع الجثة، فرائحتها مثيرة للاشمئزاز!

توجهت نحوها الأنظار التي شزرتها بشدة، يا لها من امرأة وقِحة لا تستحي من الأحياء أو الأموات على حد سواء! قال مارك بصوت حازم: يمكنك الذهاب إن شئت وسنهتم بأمر الجثة من غير أن نؤذي مشاعرك الرقيقة! لم تبد انزعاجها من لهجته الساخرة، بل بادلتها بنظرات باردة قاتلة ثم انصرفت.

دفنت الجثة في الحديقة الخلفية للقصر، حرص مارك على أن تحتضن أرض القصر جسد ذلك الخادم الوفي فدفنه في مقبرة العائلة. ظلل الحزن أركان القصر وساكنيه، أقيمت جنازة سريعة مودعة ذلك الجسد الطاهر صاحب المبادئ الجليلة، روت دموع الحاضرين الأزهار التي غطت نعشه، ساد الصمت، كان الذهول سيد الموقف.

قرر مارك العدول عن سفره للمدينة، لم يكن قادرًا على السفر بعد ذلك اليوم العصيب، أصابه القلق، لم يكن يدري مصدره، أهو الحزن على خادمه؟ أم قلقه على (هيلين)؟ أم ربما شيء آخر عجز عن إدراكه!

(هيلين): وماذا بشأن أعمالك المستعجلة يا سيدي، ألم تقل إن الأمر طارئ لا يحتمل التأجيل؟

بدت الحيرة في وجهه، تدخلت كاثرين: لم يمت غير خادم، لا يجوز تعطيل الأعمال، لن يطول غيابك، اذهب وسأتكفل برعاية القصر بمن فيه.

بدا كلامها منطقيًّا وإن كان جارحا، فالأعمال تطلبه لا محالة، قرر السفر، ركب العربة التي انطلقت بعيدا في الطريق الأبيض بينما كانت نظرات الوداع تقبل جبين أخته التي خشي عليها من أخته!

ارتسمت ابتسامة الانتصار على وجه كاثرين وهي تدخل القصر، أعجبها سير الأحداث كما تشتهي، أولا تخلصها من بيتر من دون عناء، وثانيا سفر مارك بعيدا، رأت الفرصة سانحة للتخلص من (هيلين) التي اعتبرتها ذيل الأفعى الذي لا بد من قطعه، لن تسمح لنفسها بالتهاون كما فعلت قبل عشرين عاما، عصرت أفكارها بحثًا عن طريقة مثالية لإنجاح مسعاها، كان وجود الخادمة ساندي عقبة في طريقها، لم تطل التفكير، كان أمر التخلص من خادمة مثل ساندي أمرًا سهلا للغاية، توجهت إلى المطبخ حيث كانت ساندي تجلس وحيدة على الطاولة حيث اعتادت الجلوس مع حبيبها الراحل، أسندت رأسها على الطاولة وقد حوطته بذراعيها، كانت تبكي بصوت أرهقه البكاء لساعات متواصلة، كان ذلك المشهد كفيلا بإثارة الازدراء لدى كاثرين التي زجرتها قائلة: أنت، يكفيك بكاء، أنت هنا للعمل لا للنحيب.

رفعت رأسها، أرسلت نظرات كارهة من عينين متعبتين، لم تجبها، آثرت السكوت، قامت من مكانها وانصرفت بعيدا، إلى حيث تستطيع الاختلاء بنفسها وذرف مزيد من الدموع.

النهايـة

انقضى ذلك اليوم ثقيلًا خيّم فيه الحزن كما يخيم الليل في السماء، ومع ذلك دارت الأرض دورتها، وأشرقت شمس صباح جديد وقد أطلت على القصر الذي بدا موحشًا كئيبا وكأنه أعلن الحداد.

كانت كاثرين أول المستيقظين، لم يكن نومها عميقا بعد أن أمضت ليلتها بالتفكير في كيفية التخلص من (هيلين)، هبت بنشاط من سريرها، وقفت أمام المرآة، راحت تكلمها وكأنها تقطع عهدا، عزمت على إتمام الأمر الليلة ومن دون تأجيل! لم تكن بالمرأة التي تخشى العو اقب، لم يكن ليردعها خوف، فالخوف والقلق لمن يملك قلبا! أما هي فقد تحول قلبها صخرًا لا حياة فيه، أكسبها ذلك جرأة لا حدود لها.

كان القصر قابعًا في أرضٍ معزولةٍ لا يجاوره بشر ولا يكاد يطرق بابه أحد، لم يكن فيه غيرها وخمسة من الخدم وساندي، لم يكن أمر الخدم عسيرا، فشراء سكوتهم لم يكن بالأمر الصعب، لكنها لم تكن تضمن سكوت ساندي، صممت على طردها، توجهت إلى المطبخ وقد حزمت أمرها، وقفت بالقرب من ساندي التي كانت منشغلة بعملها، قالت ومن دون مقدمات: إننا مستغنون عن خدماتك يا ساندي، ارحلي اليوم.

لم تندهش المسكينة مما سمعته، لم يعد الأمر يهمها، كانت قد عزمت الرحيل، لم تكن تطيق المقام في مكان تجد فيها ذكرى حبيبها الراحل في كل ركن من أركانه، ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت: سأرحل يا سيدتي، لكن

قبل رحيلي سأخبرك أمرا، أنت امرأة قاسية بلا قلب، لا تعرفين الرحمة، لكن اعلمي أن الأيام لن تدعك حتى تنتقم منك شر انتقام. قاطعتها كاثرين بصوت غاضب: كيف تجرئين أيتها الوَقِحة؟ من تظنين نفسك لتكلميني بهذه الطريق؟ ما أنت إلا خادمة وضيعة في هذا القصر!

لم يعد يهمني ازدراؤك لي، قولي ما شئت! خرجت من القصر بقلب مجروح وقد ودعت ذكرياتها الجميلة فيه.

****

استيقظت (هيلين) والحزن مسيطر عليها، نزلت السلم الطويل، بدا وكأنه قد زاد طولا، رأت كاثرين من بعيد، قبض قلبها وضاق نفسها، بادرت بالتحية: صباح الخير سيدتي.

كشرت كاثرين عن عبوسها ولم تحيها بل أدارت لها ظهرها باحتقار، لم تتفاجأ (هيلين) من تصرفها، راحت تنادي ساندي مرارا لكن من دون جدوى، قالت لها كاثرين بصوت بارد: يكفيك صراخا، لقد رحلت عن القصر!

دهشت (هيلين) لما سمعته فقالت: لماذا؟

- أنا قررت ذلك وكفى!

سرى الخوف في بدنها، لقد غدت وحيدة في هذا القصر الكبير، كانت نظرات كاثرين الحاقدة تزيدها خوفا وقلقا، تمنت لو كان السيد مارك موجودا، كم كانت لتشعر بالأمان إلى جانبه، أحست بالاختناق، فضلت الابتعاد عن كاثرين، لم تجد غير الانعزال في غرفتها حيث أغلقت الباب

ولازمت النافذة، أرسلت نظراتها نحو شجرة التوت البيضاء تحدثها عن وحدتها وخوفها.

مرت الساعات طويلة ثقيلة لكن كان لا بد من قدوم الليل بسواده الدامس، حيث ألبس الطبيعة لباس النوم الساكن ليستر أفعال الناس تحت جنح ظلامه الداكن. كانت ليلة صافية إلا من بعض الغيوم المتفرقة، تربع القمر قلب السماء وقد أطلّ على الأرض يشهد أعمال الناس فيها!

كانت كاثرين في غرفتها لا تغادر عيناها عقارب الساعة التي أشارت إلى الحادية عشرة والنصف، قررت انتظار انتصاف الليلة لإتمام خطتها، كان القصر بسكونه أشبه بقبر للنائمين فيه.

كان مارك يمضي أيام عمله المتواصل في المدينة، ظل باله مشغولا لم يزل يفكر بـ(هيلين)، ندم على عدم اصطحابها معه وهو الذي قطع على نفسه عهدا ألا يفارقها وأن يسهر على أمنها، كان بإمكانها البقاء في بيت صديقه جاك فتأنس مع زوجته ميري، أحس في ضيق يعتصره فكان لا بد من اللجوء إلى صديقه المخلص، جلسا قرب المدفأة كما اعتادا أن يفعلا دوما، قال مارك: أشعر في ضيق في صدري يا جاك، أكاد أختنق يا صديقي!

- يكفيك قلقا! ألهذا الحد أنت مشتاق يا رجل؟
- أنت لا تعرف كم أنا قلق على (هيلين)، أخشى عليها من كاثرين.
- هل تظن أنها قد تقدم على عمل جنوني؟
- يمكنني توقع أي شيء من كاثرين، إنها امرأة حقود ولن تتوانى عن فعل شيء إن صممت عليه!

- إن كان الأمر كما تقول فلا بد لك من العودة بأسرع وقت ممكن، ارحل عائدا مع بزوغ الفجر يا صديقي. أنا لا أقصد أن أزيد من قلقك يا مارك لكن الحيطة واجبة يا عزيزي.

انتفض مارك و اقفا وكأن أفعى لدغته وقال: بل أرحل الآن!

- أمجنون أنت يا مارك، أوشكت الليلة على الانتصاف يا صاحبي، اقضِ الليلة عندي وغادر غدا صباحا.
- أشعر أن أمرا سيحدث، لست مطمئنا، أراك لاحقا يا صديقي.

ركب عربته و انطلق مسرعا إلى القصر، كان الطريق زلقا وقد تحول الثلج صقيعًا فعرقل سرعة العربة، كانت نبضاته تتسارع، استشعر قلبه الخطر، نظر إلى القمر بعينين راجيتين، تمنى السلامة لـ(هيلين) وهو يحث خطاه إليها.

في القصر الكبير، أعلنت الساعة انتصاف الليلة، أخرجت كاثرين سلاحها، ضمته إلى صدرها، اتجهت نحو السلم الطويل، عبرت درجاته ببطء وحذر، وقفت عند باب غرفة (هيلين)، كانت نائمة في سريرها، اقتحمت ذاكرتها صورة زوجة أبيها، وصورة المهد الذي احتضن الرضيعة، اقتربت من السرير، وجهت السلاح إلى قلب المسكينة النائمة وهي تقول ببرود: وداعا يا صغيرتي!

في تلك الأثناء كان مارك قد وصل إلى القصر النائم، دخله راكضًا لاهثا، انطلق إلى غرفة كاثرين، لم يجدها هناك، كاد قلبه يتوقف عن الحركة، صعد السلم حاثًّا خطاه بعدما كادت قدماه تخوران حيث استنزفهما القلق،

وصل أخيرا غرفة (هيلين)، دخلها، كان ضوء القمر قد أنار الغرفة ليكشف له عن بحر أحمر من الدماء على السرير، أدرك أنه قد تأخر، غرقت عيناه في منظر الدماء، كانت كاثرين تقف أمام المرآة وقد استغرقت بالضحك، كانت مسرورة وهي تقول: قضي الأمر يا عزيزي، تخلصت منها، لم تعد هناك دخيلة في قصري!

تقدم نحوها والذهول قد أحاط به فقال: ماذا فعلت أيتها المجنونة؟ قتلت أختك؟ إنها أختك! (هيلين) أختك!

ابتسمت ابتسامتها الباردة وقالت: أعرف ذلك! لم تكن أختي بل ابنة سارة؛ سارقة أبينا، الأفعى التي دخلت قصري قبل عشرين عاما فقطعت رأسها، وها أنا اليوم أقطع ذيلها، جاءت لتسرق مالي، مالي أنا وحدي! ثم ماجت في نوبة ضحك هستيري.

كيف لها أن تسرق مالك أيتها المجنونة وهي لا تعلم في الأصل من تكون وكيف أتت إلى هذا العالم الظالم؟ ألا تملكين ضميرا وإن كان نائما فيصحو بعد سبات دام سنوات طويلة عشت فيها منعمة هانئة، بينما تقاسي أختك الأمرين التشرد والظلم بين أحضان الشوارع العفنة؟ كنت مستعدا للتنازل عن كل ما أملك من مال مقابل سلامتها لو أنك أمهلتني فرصة للمساومة. أي حب للمال هذا الذي أعمى بصيرتك حتى سولت لك نفسك قتل أختك؟ ولكن هيهات أن ينبض قلب بعد تحجره، وهيهات للندم أن يطرق بابك وقد لطخت الدماء يديك الآثمتين ودنس الشر روحك فتصالحت مع الشياطين.

كاد الغضب يتفجر من عروقه فتقدم نحوها يريد قتلها وهو يقول: لقد ضقت بك ذرعا أيتها المجنونة، سأقتلك وأريح العالم منك!

هددته قائلة: تراجع يا مارك وإلا أرديتك قتيلا!

- افعلي ما شئت، أحببت الحياة بعدما عرفت (هيلين)، والآن وقد فارقتني فإني سئمت العيش بعدها.

أطلقت الناروهي تقول: يا لك من أخ تعس.

رأته يسقط ميتا عند قدميها، رفعته بصعوبة إلى حيث جثة (هيلين)، نظرت إلى الجسدين الملطخين بالدماء، كانا ساكنين بلا حراك وقد عم الهدوء أجواء الغرفة، أدركت أنها ظفرت أخيرا بالمال والوَحدة التي كانت تصبو إليهما، بدا الأمر بسيطا بلا تعقيد فشعرت بالانتصار.

فركت عينيها مندهشة بعدما تراءت أمامهما الأرواح التي كانت قد فصلتها عن أجسادها، تراقصت أرواح سارة و(هيلين) ومارك، أحاطوا بها وهم يشيرون إليها بالبنان يطالبون بمحاكمة عادلة، فركت عينيها ثانية غير مصدقة لما تريان فتلاشت الأرواح في السراب، أصابتها نوبة من الضحك وهي تقول: قتلت أخوي، قتلت أخوي، كم أنا شريرة، كاثرين شريرة!

استيقظ من في القصر على صوت إطلاق الرصاص، دخلوا الغرفة فوجدوا كاثرين ترقص فيها حينًا وتقلب الجثث النائمة أحيانا أخرى وهي غارقة بالضحك: أنا قتلتهما!

كانت تلك الواقعة كفيلة بتفجيركل المشاعر المضطربة في نفس كاثرين منذ طفولتها، جنت وهكذا كان. أغلق القصر الكبير أبوابه بعدما أخذت كاثرين إلى مصحّة لتقضي فيه سني حياتها...

ابتسامة باردة

العاشر من تموز ١٨٩٦

كان يومًا حارًا مميزا، خرجت فيه كاثرين من المستشفى، بعد أن أمضت فيه ثلاثين عاما، كانت مدة كافية لتستعيد توازنها وتسترجع هدوءها الذي هزته جريمتها النكراء. خرجت عجوزا بدا الانحناء في ظهرها، توجهت إلى قصرها الكبير الذي غدا هَرِما كصاحبته، دخلته وقد عصفت بها الذكريات، تذكرت يوم الإثنين الذي مضى من دون أن تنفذ العملية وأتى بعده إثنين وإثنين على مدى ثلاثين عاما!

تجولت في حديقة القصر التي تشابكت أعشابها وتعانقت أشجارها بعدما هجرت لسنوات طوال، قصدت الجزء الخلفي منها حيث يرقد الأموات بهدوء في قبورهم المنسية، قلبت نظرها بين تلك القبور التي ترتب فيها أصحابها بالتوالي؛ قبر أمها فأبيها فسارة فبيتر ثم انضم إليهم قبر مارك و(هيلين). تأملت سكون القبور وقد غطتها الحشائش المتطفلة حتى كادت تخفي أثرها، أدارت ظهرها بعد أن تمتمت وكأنها تخاطب الأرواح التي تحرس القبور قائلة: كلكم خونة تستحقون النسيان في غياهب الموت.

تابعت سيرها ببطء حتى استطاعت أخيرا الوصول إلى شجرة التوت القابعة في منتصف الحديقة، جلست في ظلها وقد هَرِمت هي الأخرى، بات كل شيء عجوزا، حتى ابتسامتها الباردة لم تعد تقوى على إبرازها!

شاهدت من بعيد كهلًا يدخل الحديقة ويتقدم نحوها بخطوات مرتعشة وهو يتكئ على عصاه، خانتها ذاكرتها فلم تعرفه، فقال بصوت ضعيف هَرِم: أنا جاك، صديق المرحوم مارك، جئت أسلمك عهدة أوصاني بها قبل رحيله.

لم يطل في كلامه، سلمها الظرف ورحل بعدما مسح دمعة فشل في إخمادها، نظرت بعينيها التعبتين إلى الظرف، فتحته بتثاقل وشرعت بقراءة ما جاء فيه: "أختي كاثرين، أكتب لك هذه الرسالة، أرجو أن تصلك في حال حدوث ما لا أرجو حصوله، اعلمي يا كاثرين أن (هيلين) أختنا من أبينا، عاشت مشردة طيلة حياتها، أعادتها الأقدار إلينا شابة جميلة بريئة، لا بد لنا من أن نرعاها ونعوضها عن سني الشقاء التي عاشتها.

إن ما أرجوه بل وأتمناه منك أن ترعيها في حال أصابني مكروه. ستجدين مع هذه الرسالة خاتما، هو ذات الخاتم الذي تركته معها في مهدها. أرجو منك تنفيذ الوصية. أخوك مارك".

استخرجت الخاتم، ارتدته في إصبعها فسقطت عليه أشعة الشمس الذهبية؛ فتوهج لمعانه وانعكست الأشعة في عينيها وكأن الشمس توبخها على ما اقترفته يداها، لكن قلبها لم يعرف الندم قط، أعجبها تربع الخاتم في تلك اليد المترهلة، رأت في رجوع الخاتم إليها رجوع الحق لأصحابه! اتكأت على شجرة التوت وقد ارتسمت ابتسامتها الباردة على وجهها، أغمضت عينيها فكانت إغماضتها الأخيرة.

النهاية!

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017